## نجيب محفوظ

# البشرية تبلغ سن الرشد 1988

بدأ نجيب محفوظ الكتابة في السابعة عشر من عمره. وهو من مواليد القاهرة، عام 1911، ولطالما عُدَّ علماً ثقافياً في موطنه. نُشرت روايته الأولى في 1939، ثم كتب عشرة روايات أخرى قبل الثورة المصرية في تموز/ يوليو 1952. وقد شهد العام 1959 نشر ثلاثية القاهرة «بين القصرين» و«قصر الشوق» و«السكرية» - وقد أكسبته هذه الصور لحياة الناس التقليدية في المدن شهرة في العالم العربي كله. ثم أطلقت روايته «أولاد حارتنا» مرحلة جديدة من عمله، حيث كثيراً ما أخفي آراءه السياسية خلف استعارات ورموز.

عمل نجيب محفوظ سنوات عديدة موظفاً في مختلف دوائر الحكومة المصرية، بما في ذلك مستشاراً للشؤون الثقافية في وزارة الثقافة. ومع تقاعده من العمل الوظيفي في العام 1972 أخذت كتاباته تنمو باطراد نحو التجريب والتنوع. وقد بلغت أعماله ثلاثين رواية وأكثر من مئة قصة ومئتي مقالة. كذلك تحول عديد من رواياته إلى أعمال سينمائية للعالم الناطق بالعربية. وقد عاش محفوظ تحت حماية دائمة بعد محاولة اغتيال استهدفت حياته من متطرفين إسلاميين في العام 1994.

أثنت الأكاديمية على محفوظ بوصفه كاتباً «أطلق عبر أعماله الغنية بالتنويعات الدقيقة، فكان حيناً واقعياً واضح الرؤية، وحيناً موحياً عند الالتباس، فن سرد عربي تفيد منه البشرية جمعاء». وقد قرأ خطابه في الأكاديمية السيد محمد سلماوي، بالعربية أولاً ثم بالإنكليزية.

رحل محفوظ عن عالمنا في العام 2006.

في البدء أشكر الأكاديمية السويدية ولجنة نوبل التابعة لها على التفاتها الكريم الاجتهادي المثابر الطويل، وأرجو أن تتقبلوا بسعة صدر حديثي إليكم بلغة غير معروفة لدى كثير منكم، ولكنها هي الفائز الحقيقي بالجائزة، فمن الواجب أن تسبح أنغامها في واحتكم الحضارية لأول مرة. وإني كبير الأمل ألا تكون المرة الأخيرة، وأن يسعد الأدباء من قومي بالجلوس بكل جدارة بين أدبائكم العالميين الذين نشروا أريج البهجة والحكمة في دنيانا المليئة بالشجن.

سادتي..

أخبرني مندوب جريدة أجنبية في القاهرة بأنه لحظة إعلان اسمي مقروناً بالجائزة ساد الصمت وتساءل كثيرون عمن أكون، فاسمحوا لي أن أقدم لكم نفسي بالموضوعية التي تتيحها الطبيعة البشرية. أنا ابن حضارتين تزوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجاً موفقاً، أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة وهي الحضارة الفرعونية، وثانيتهما عمرها ألف وأربع مئة سنة وهي الحضارة الإسلامية. ولعلي لست في حاجة إلى تعريف بأي من الحضارتين لأحد منكم، وأنتم من أهل الصفوة

والعلم، ولكن لا بأس من التذكير ونحن في مقام النجوى والتعارف.. وعن الحضارة الفرعونية لن أتحدث عن الغزوات وبناء الإمبراطوريات، فقد أصبح ذلك من المفاخر البالية التي لا ترتاح لذكرها الضمائر الحديثة والحمد لله. ولن أتحدث عن اهتدائها لأول مرة إلى الله سبحانه وتعالى وكشفها عن فجر الضمير البشري. فلذلك مجال طويل فضلاً عن أنه لا يوجد بينكم من لم يلم بسيرة الملك النبي إخناتون. بل لن أتحدث عن إنجازاتها في الفن والأدب، ومعجزاتها الشهيرة: الأهرام وأبو الهول والكرنك. فمن لم يسعده الحظ بمشاهدة تلك الآثار فقد قرأ عنها وتأمل صورها. دعوني أقدمها -الحضارة الفرعونية- بما يشبه القصة طالما أن الظروف الخاصة بي قضت بأن أكون قصاصاً، فتفضلوا بسماع هذه الواقعة التاريخية المسجلة.. تقول أوراق البردي إن أحد الفراعنة قد نما إليه أن علاقة آثمة نشأت بين بعض نساء الحريم وبعض رجال الحاشية. وكان المتوقع أن يجهز على الجميع فلا يشذ في تصرفه عن مناخ زمانه. ولكنه دعا إلى حضرته نخبة من رجال القانون. وطالبهم بالتحقيق فيما نما إلى علمه، وقال لهم إنه يريد الحقيقة ليحكم بالعدل. ذلك السلوك في رأيي أعظم من بناء إمبراطورية وتشييد الأهرامات، وأدل على تفوق الحضارة من أي أبهة أو ثراء. وقد زالت الإمبراطورية وأمست خبراً من أخبار الماضي. وسوف يتلاشى الأهرام ذات يوم ولكن الحقيقة والعدل سيبقيان مادام في البشرية عقل يتطلع أو ضمير ينبض..

وأما الحضارة الإسلامية فلن أحدثكم عن دعوتها إلى إقامة وحدة بشرية في رحاب الخالق تنهض على الحرية والمساواة والتسامح، ولا عن عظمة رسولها. فمن مفكريكم من كرَّمه بوصفه أعظم رجل في تاريخ

البشرية. ولا عن فتوحاتها التي غرست آلاف المآذن الداعية للعبادة والتقوى والخير على امتداد أرض مترامية ما بين مشارف الهند والصين وحدود فرنسة. ولا عن المؤاخاة التي تحققت في حضنها بين الأديان والعناصر في تسامح لم تعرفه الانسانية من قبل ولا من بعد. ولكنى سأقدمها في موقف درامي مؤثر يلخص سمة من أبرز سماتها..ففي إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردت الأسرى مقابل عدد من كتب الفلسفة والطب والرياضة من التراث الإغريقي العتيد. وهي شهادة ذات قيمة للروح الإنساني في طموحه إلى العلم والمعرفة، رغم أن الطالب يعتنق ديناً سماوياً والمطلوب ثمرة حضارة وثنية.. قدر لي يا سادة أن أولد في حضن هاتين الحضارتين. وأن أرضع لبانهما واتغذى على آدابهما وفنونهما. ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة. ومن وحي ذلك كله بالإضافة إلى شجوني الخاص؛ ندت عني كلمات. أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة فتوجت اجتهادي بجائزة نوبل الكبرى. فالشكر أقدمه لها باسمي وباسم البناة العظام الراحلين من مؤسسي الحضارتين.

سادتي..

لعلكم تتساءلون.. هذا الرجل القادم من العالم الثالث كيف وجد من فراغ البال ما أتاح له أن يكتب القصص، وهو تساؤل في محله.. فأنا قادم من عالم ينوء تحت أثقال الديون حتى ليهدده سدادها بالمجاعة أو ما يقاربها. يهلك منه أقوام في آسية من الفيضانات. ويهلك آخرون في إفريقية من المجاعة. وهناك في جنوب إفريقية ملايين المواطنين قضي عليهم بالنبذ والحرمان من أي من حقوق الإنسان في عصر حقوق الإنسان وكأنهم غير معدودين من البشر.. وفي الضفة وغزة أقوام ضائعون على

الرغم من أنهم يعيشون فوق أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم.. هبوا يطالبون بأول مطلب حققه الإنسان البدائي؛ وهو أن يكون لهم موضع مناسب يعترف لهم به. فكان جزاء هبتهم الباسلة النبيلة -رجالاً ونساءً وشباباً وأطفالاً- تكسيراً للعظام، وقتلاً بالرصاص، وهدماً للمنازل، وتعذيباً في السجون والمعتقلات. ومن حولهم مئة وخمسون مليوناً من العرب. يتابعون ما يحدث بغضب وأسى مما يهدد المنطقة بكارثة إن لم تتداركها حكمة الراغبين في السلام الشامل العادل.. أجل كيف وجد الرجل القادم من العالم الثالث فراغ البال ليكتب قصصاً؟.. ولكن من حسن الحظ أن الفن كريم عطوف. وكما أنه يعايش السعداء فإنه لا يتخلى عن التعساء. ويهب كل فريق وسيلة مناسبة للتعبير عما يجيش به صدره، وفي هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الحضارة لا يعقل ولا يقبل أن تتلاشى أنات البشر في الفراغ. لا شك أن الإنسانية قد بلغت على الأقل سن الرشد. وزماننا يبشر بالوفاق بين العمالقة، ويتصدى العقل للقضاء على جميع عوامل الفناء والخراب. وكما ينشط العلماء لتطهير البيئة من التلوث الصناعي فعلى المثقفين أن ينشطوا لتطهير البشرية من التلوث الأخلاقي. فمن حقنا وواجبنا أن نطالب القادة الكبار في دول الحضارة، كما نطالب رجال اقتصادها بوثبة حقيقية تضعهم في بؤرة العصر.. قديماً كان كل قائد يعمل لخير أمته وحدها جاعلاً بقية الأمم خصوماً أو مواقع للاستغلال. دونما أي اكتراث لقيمة غير قيمة التفوق والمجد الذاتي. وفي سبيل ذلك أهدرت أخلاق ومبادئ وقيم. وبرزت وسائل غير لائقة. وأزهقت أرواح لا تحصى. فكان الكذب والمكر والغدر والقسوة من آيات الفطنة، ودلائل العظمة.. اليوم يجب أن تتغير الرؤية من جذورها. اليوم يجب أن تقاس عظمة القائد المتحضر بمقدار شمول نظرته وشعوره

بالمسؤولية نحو البشرية جميعاً. وما العالم المتقدم والثالث إلا أسرة واحدة، يتحمل كل إنسان مسؤوليته نحوها بنسبة ما حَّصل من علم وحكمة وحضارة.. ولعلي لا أتجاوز واجبي إذا قلت لهم باسم العالم الثالث: لا تكونوا متفرجين على مآسينا، ولكن عليكم أن تلعبوا فيها دوراً نبيلاً يناسب أقداركم. إنكم من موقع تفوقكم مسؤولون عن أي انحراف يصيب أي نبات أو حيوان، فضلاً عن الإنسان في أي ركن من أركان المعمورة. وقد ضقنا بالكلام، وآن أوان العمل. آن الأوان لإلغاء عصر قطاع الطرق والمرابين. نحن في عصر القادة المسؤولين عن الكرة الأرضية. أنقذوا المستبعدين في الجنوب الإفريقي. انقذوا الجائعين في إفريقية. أنقذوا الفلسطينيين من الرصاص والعذاب، بل أنقذوا الإسرائيليين من تلويث تراثهم الروحي العظيم. أنقذوا المدينين من قوانين الاقتصاد الجامدة. والفتوا أنظارهم إلى أن مسؤوليتهم عن البشر يجب أن تقدم على التزامهم بقواعد علم لعل الزمن قد تجاوزه..

سادتي..

معذرة.. أشعر بأني كدرت شيئاً من صفوكم، ولكن ماذا تتوقعون من قادم من العالم الثالث. أليس كل إناء بما فيه ينضح؟

ثم أين تجد أنات البشر مكاناً تتردد فيه إذا لم تجده في واحتكم الحضارية التي غرسها مؤسسها العظيم لخدمة العلم والأدب والقيم الإنسانية الرفيعة؟!.. وكما فعل ذات يوم برصد ثروته للخير والعلم طلباً للمغفرة، فنحن - أبناء العالم الثالث - نطالب القادرين المتحضرين باحتذاء مثاله واستيعاب سلوكه ورؤيته..

سادتي..

برغم كل ما يجري حولنا فإنني ملتزم بالتفاؤل حتى النهاية. لا أقول مع الفيلسوف كانت إن الخير سينتصر في العالم الآخر. فإنه يحرز نصراً كل يوم. بل لعل الشر أضعف مما نتصور بكثير. وأمامنا الدليل الذي لا يجحد. فلولا النصر الغالب للخير ما استطاعت شراذم من البشر الهائمة على وجهها عرضة للوحوش والحشرات والكوارث الطبيعية والأوبئة والخوف والأنانية. أقول لولا النصر الغالب للخير ما استطاعت البشرية أن تنمو وتتكاثر وتكون الأمم وتكتشف وتبدع وتخترع وتغزو الفضاء وتعلن حقوق الإنسان: غاية ما في الأمر أن الشر عربيد ذو صخب، ومرتفع الصوت، وأن الإنسان يتذكر ما يؤلمه أكثر مما يسره. وقد صدق شاعرنا أبو العلاء عندما قال:

إن حزن ساعة الموت ..... أضعاف سرور ساعة الميلاد.

سادتي..

أكرر الشكر، وأسألكم العفو.

## جوزيف برودسكي

# علم الجمال واللغة 1987

أمضى جوزيف برودسكي Joseph Brodsky مدة كبيرة من حياته في المنفي. وقد ولد في العام 1940 في لينينغراد، وبدأ كتابة الشعر وهو في الثامنة عشر. وحكمت عليه السلطات السوفييتية في مارس/آذار 1964 بالسجن خمس سنوات مع الأشغال الشاقة، متهمة إياه بالطفيلية الاجتماعية، وعاش في المنفي في منطقة ارتشانجيلسك في شمال روسية، مدة ثمانية عشر شهراً، قبل تخفيف الحكم بضغط من شخصيات أدبية سوفييتية وعالمية. ولم تظهر غالبية أعمال برودسكي إلا في الغرب، بسبب رفضه الرقابة على كتاباته.

نُفي برودسكي من الاتحاد السوفييتي في 4 يونيو/ حزيران 1972، وبعد قضائه مدة قصيرة في فيينا ولندن، استقر في النهاية في الولايات المتحدة، حيث شغل عدة مناصب في الجامعات في مختلف أنحاء البلاد، منها شاعر مقيم وأستاذ زائر في كل من جامعتي ميتشيغان وكولومبية، وفي جامعة كامبردج في المملكة المتحدة. ترجمت أشعاره إلى أكثر من عشر لغات. من دواوينه المنشورة A Part of Speech، قسم من الكلام،Nativity Poems أشعار الميلاد و So Forth وهكذا دواليك، و To Urania إلى أورانية.

وصدرت مقالاته في مجموعتين Less than One أقل من واحد، و On Grief and Reason عن الحزن والعقل.

تلقى برودسكي الجائزة «لنتاجه المتنوع المشبع بوضوح الفكر والكثافة الشعرية». توفي في عام 1996.

# I

إن شخصاً عادياً تقريباً غير ذي منصب أمضى كل حياته مؤثراً وضعه العادي على أي دور ذي أهمية اجتماعية بارزة، ولعله أوغل في ما يؤثره -بعيداً عن وطنه الأم، في أدنى تعبير، لأنه أجدى عنده أن يكون فاشلاً مطلقاً على أن يكون شهيداً أو نخبة النخبة في حكم الطغيان- فأن يجد شخص -هذا شأنه- نفسه فجأة على هذا المنبر لأمر غير مريح وتجربة منهكة.

يزيد من هذا الإحساس ليس التفكير بأولئك الذين سبقوني إلى هذا المنبر، بقدر ما هو تذكر أولئك الذين أغفلهم هذا الشرف، وهم الذين لم تتح لهم فرصة مخاطبة «رومة والعالم»، كما جرى القول، من هذا المنبر ومن كان صمتهم المتراكم ضرب من البحث، عبثاً، للإعلان عبر هذا المتكلم.

إن الأمر الوحيد الذي يمكن أن يوفق ما بين المرء ووضع كهذا هو الإدراك البسيط أن كاتباً فرداً لا يمكنه أن يتحدث نيابة عن كاتب آخر، وشاعراً عن شاعر آخر -لأسباب تتصل بالأسلوب في المقام الأول-؛ فلو أن أوسيب ماندلستام، أو مارينا تسفيتافا، أو روبرت فروست، أو آنا أخماتوفا، أو

وستان أودن وقفوا ههنا، لما تمالكوا أنفسهم عن الكلام بالأصالة، كل عن نفسه، وإن ربما راود هؤلاء، أيضاً، بعض الشعور بالضيق.

تثير هذه الظلال لدي الاضطراب دوماً؛ كما تثيره فيّ اليوم أيضاً. وهذه على كل حال ليست بالحافز على طلب البلاغة. إنني أرى نفسي، في أفضل لحظاتي حاصل جمع هؤلاء كلهم، وإن كنت دون أي منهم، فرادى. ذلك أنه ليس بالإمكان التفوق عليهم في الكتابة؛ ولا في الحياة الطبيعية. وغالباً ما تثير مشاعري بالضبط حياتهم، مهما تكن مفجعة أو مريرة -وربما في أغلب الأحيان أكثر مما ينبغي- الأسف لمرور الوقت. إن كان ثمة من حياة أخرى -وأنا لا أملك أن أنكر عليهم إمكانية حياة أبدية أكثر مما أستطيع نسيان وجودهم في هذه الحياة- إن كان العالم الآخر موجوداً فإنهم كما آمل سوف يغفرون لي خاصة ما سوف أتفوه به. وبالرغم من كل شيء، فليس سلوك المرء على المنبر المعيار الذي تقاس به الكرامة في مهنتنا.

لقد اقتصرت على ذكر خمسة فقط من أولئك الذين كانت أفعالهم ومصائرهم تعني لي كثيراً، ولو لأنه لولاهم لكان قدري أنا، إنساناً وكاتباً، دون ما أنا عليه بكثير؛ أو في الأقل ما كان لي أن أقف هنا اليوم. كان هناك كثير من تلك الظلال -أو بالأحرى مصادر النور: مصابيح؟ نجوم؟- أكثر، طبعاً، من خمسة وحسب. وكل منهم قادر على أن يجعلني في حالة صمت مطلق. وعدد هؤلاء كبير في حياة أي أديب واع؛ وفي حالتي يتضاعف العدد، بفضل الثقافتين اللتين شاء لي القدر أن أنتمي إليهما. وليس يهّون من الأمور خواطر عن معاصرين لي وكتاب زملاء في كلتا الثقافتين، شعراء وكتاب قصص وروايات، أضع مواهبهم في مرتبة أعلى مما لدي، وكان من شأنهم -لو قدر لهم أن يجدوا أنفسهم على هذا

المنبر- أن يعرضوا هذه الفكرة قبل وقت طويل، لأن لديهم بالتأكيد كثيراً مما يقولونه أفضل مني.

لذلك سوف أجيز لنفسي أن أبدي هنا عدداً من النقاط -مفككة، وربما متعثرة، أو ربما مثيرة للحيرة أيضاً لما تتصف به من العشوائية. بيد أن الوقت المتاح لي لجمع أفكاري، فضلاً عن مهنتي ذاتها، أو لعلي آمل، أن تحميني ولو جزئياً على الأقل من الاتهام بالفوضوية. فالمرء الذي يعمل في مهنتي قلما يدعي لنفسه منهجية التفكير؛ وفي أسوأ الأحوال قد يدعي لنفسه امتلاك منهج- ولكن هذا أيضاً، في حالته، استعارة من المحيط، من نظام اجتماعي، أو من اطلاع على الفلسفة في سن مبكرة. ليس ثمة ما يقنع فناناً أكثر من عشوائية الوسائل التي يلجأ إليها لبلوغ هدفه - مهما كان ثابتاً - من العملية الإبداعية ذاتها، عملية التأليف. الشعر ينمو فعلاً، حسب كلمات أخماتوفا، من النفايات؛ وجذور النثر ليست أشرف منبتاً.

## II

إن كان الفن يعلّم شيئاً (للفنان، في المقام الأول) فهو خصوصية الوضع الإنساني. فالفن، بوصفه أقدم شكل أدبي وأكثره تشدداً بين المشروعات الخاصة، يرسي في الإنسان إن عن علم أو عن غير عمد، شعوراً بتفرده، بفرديته، وانعزاله - محولاً إياه من حيوان اجتماعي إلى «أنا» مستقلة. هناك أشياء كثيرة يمكن المشاركة فيها: فراش، وقطعة خبز، وقناعات، وعشيقة، إنما ليس قصيدة، مثلاً، لراينر ماريا ريلكه. ذلك أن عملاً من أعمال الفن، أو الأدب خاصة، وبالأخص الشعر، يخاطب المرء رأساً - لرأس، فينهمك وإياه في علاقات مباشرة- خالية من الوساطة.

لهذا السبب كان أنصار الصالح العام، أسياد الجماهير، أنبياء الضرورة التاريخية لا يفضلون تماماً، الفن عموماً، والأدب خصوصاً. ذلك أنهم في هذا المجال -حيث سار الفن خطواته، وتمت قراءة الشعر- اكتشفوا في موقع التأييد والإجماع، اللامبالاة وتعدد الأصوات؛ ومحل العزم على العمل هناك الشرود والتأفف. بكلمات أخرى، في الأصفار الصغيرة حيث ينزع دعاة الصالح العام وحكام الجماهير للعمل، يعرض الفن «مدة، مدة وفاصلة، وإشارة طرح»، وبذلك يحول كل صفر إلى إنسان خطر، وإن لم يكن دوماً ذا وجه جميل.

وصف باراتنسكي العظيم آلهة الإلهام عنده حين كان يتحدث عنها، بأنها ذات «وجه غير مألوف». وفي اكتساب «الوجه غير المألوف» هذا يبدو أن معنى الوجود الإنساني يكمن، لأننا في هذه الغرابة يكون إعدادنا -إذا جاز التعبير- بيولوجياً. ومهمة المرء، سواء كان كاتباً أم قارئاً، تكمن أولاً في السيطرة على حياة هي حياته ذاتها، ولا تكون مفروضة أو موصوفة من الخارج، مهما كان مظهرها نبيلاً. ذلك أن لكلٍ منا حياة واحدة، ونحن نعلم حق العلم كيف ينتهي هذا كله. ولسوف يكون مؤسفاً أن نبدد هذه الفرصة الفريدة على مظهر شخص آخر، تجربة شخص آخر، في حشو لا يفيد - ويزيد المرء أسفاً، لأن المبشرين بالضرورة التاريخية الذين يحثون على إعداد المرء لقبول هذا الحشو، لن يذهبوا معه إلى القبر ولن يتكرموا عليه ولا بكلمة شكراً.

اللغة والأدب أيضاً -كما نظن- أمران قديمان ومحتمان، وأكثر دواماً من أي شكل من التنظيم الاجتماعي. وآية ذلك أن ما يعبر الأدب عنه غالباً من قرف أو سخرية أو لا مبالاة تجاه الدولة هو في جوهره رد فعل

من الأبقى -أو بالأحرى غير المحدود- حيال العارض المؤقت، والمحدود المتناهي. وأقل ما يقال إن للأدب الحق بالتدخل في شؤون الدولة، طالما أن ذاتها تتدخل في شؤون الأدب. إن أي نظام سياسي، وأي شكل من التنظيم الاجتماعي أو أي منظومة على الإطلاق، هو -تعريفاً- صيغة من فعل ماض يطمح إلى فرض نفسه على الحاضر (وكثيراً ما يفرض نفسه على المستقبل أيضاً)؛ وإن إنساناً مهنته اللغة لهو آخر من يحق له أن ينسى هذا. والخطر الحقيقي الذي يتهدد كاتباً ليس احتمال (وغالباً يقيناً) الاضطهاد من جانب الدولة كما هو احتمال أن يجد المرء نفسه مأخوذاً مشلول القدرة بقوة مظاهر الدولة، مهما تكن هذه المظاهر وحشية أو تجري تغييرات إلى الأفضل، هي أبداً عارضة مؤقتة.

إن فلسفة الدولة، وأخلاقها -ناهيكم عن جمالياتها- هي دوماً من أمر «البارحة». واللغة والأدب هما دوماً من أمر «اليوم»، وغالباً -وخاصة حين يكون النظام السياسي أورثوذوكسياً، تقليدياً متصلب الرأي- قد يؤلفان «غداً». وإحدى فضائل الأدب أنه بالضبط يعين المرء على أن يجعل زمن وجوده أكثر تحديداً، ويميز نفسه عن حشد من أسلافه وأقرانه، ويتجنب الحشو - أي المصير الذي يعرف بعبارة جليلة أخرى «ضحية التاريخ». ما الذي يجعل الفن عموماً، والأدب خصوصاً، أمراً خارقاً، وما الذي يميزهما عن الحياة، إنه بالضبط كونهما يمقتان التكرار. ففي الحياة اليومية بوسع المرء أن يكرر النكتة ذاتها ثلاث مرات، وفي المرات الثلاث ينال ضحكة، وتغدو الحياة عندئذ بهجة وفرحاً. أما في الفن فيسمى هذا الضرب من السلوك، «فكرة مبتذلة».

والفن سلاح عديم الارتداد، لا يتقرر تطوره بتفرد الفنان، إنما بدينامية

المادة ذاتها ومنطقها، بالقدر الذي انتهت إليه هذه المادة، ويقتضي (أو يقترح) في كل مرة حلاً جمالياً جديداً من حيث النوع. فالفن -إذ يتمتع بسلسلته الخاصة من النسب، وديناميته، ومنطقه ومستقبله- مرادف أو في أفضل الأحوال مواز للتاريخ؛ والنهج الذي يقوم عليه يكون بإبداع واقع جمالي جديد باستمرار. لذلك غالباً ما نجده «سبَّاقاً إلى التقدم»، متقدماً على التاريخ الذي أداته الأساسية -إن لم نتقدم، مرة أخرى، كما قال ماركس- هي الفكرة المبتذلة.

هناك في هذه الأيام رأي شائع على نطاق واسع يذهب إلى أنه ينبغي على الكاتب -وخاصة الشاعر- أن يستخدم في عمله بلغة الشارع، لغة جميع الناس. ولكن هذا التأكيد، بالرغم من مظهره الديمقراطي، ومزاياه الواضحة للكاتب، عبث تماماً، ويعكس محاولة لإخضاع الفن، وهو في هذه الحالة الأدب. للتاريخ ولكن ليس من شأن الأدب أن ينطق بلغة الناس، إلا إذا ثبت عندنا أن الوقت قد حان ليتوقف الإنسان العاقل عن التطور. وإلا فإن الأجدر أن ينطق البشر بلغة الأدب.

وعلى وجه الإجمال فإن كل حقيقة جمالية جديدة تضاف إلى دقة الحقيقة الأخلاقية. ذلك أن علم الجمال أبو الأخلاق؛ وما مقولتا «الحسن» و «السيئ» -أولاً وقبل كل شيء- إلا مقولتين من مقولات علم الجمال، فهما على الأقل تسبقان المرتبتين «الخير» و «الشر»، فإذا كان في الأخلاق «لا يُجاز كل أمر» فإنه ذلك بالضبط، لأنه لا يجاز كل شيء في علم الجمال، ولأن عدد الألوان التي يتألف منها الطيف محدود. فالطفل الرضيع الذي يبكي ويعرض عن الغريب، أو على العكس من ذلك، يمد يده إليه، إنما يقوم بذلك غريزياً، متخذاً خياراً جمالياً، لا خياراً أخلاقياً.

الخيار الجمالي قرار فردي إلى أبعد حد، والتجربة الجمالية هي دوماً تجربة خاصة. وكل حقيقة جمالية جديدة تزيد من خصوصية التجربة؛ وهذا الضرب من الخصوصية - متخذاً أحياناً هيئة ذوق أدبي (أو أي ذوق آخر) - يمكن أن يكون في حد ذاته، إن لم يكن ضماناً، شكلاً من الدفاع في وجه الاستعباد. ذلك أن إنساناً ذا ذوق، وخاصة ذوق أدبي، يكون أقل قابلية للأخذ بالمحظورات في اللوازم الإيقاعية التي يختص بها كل مظهر من الغوغائية السياسية، فالأمر ليس في أن الفضيلة لا تشكل ضمانة لإنتاج أثر فني أو أدبي بقدر ما أن الشر، وخاصة الشر السياسي هو دوماً أسلوب سيئ. فبقدر ما تتسع خبرة المرء الجمالية يكون ذوقه أسلم، وكلما ازداد تركيزه الأخلاقي حدة، ازداد حرية - وإن لم يكن بالضرورة ازداد سعادة.

يجدر بنا بهذا المعنى التطبيقي، وليس بالأحرى الأفلاطوني، أن نفهم ملاحظة دوستويفسكي أن الجمال سوف ينقذ العالم، أو معتقد ماثيو أرنولد الذي يرى أنه يقع علينا واجب إنقاذ الشعر. ولعل الأرجح أن الأمر تأخر بالعالم، لكن للفرد هناك الفرصة أبداً قائمة. ذلك أن ثمة غريزة جمالية تنمو باكراً، لدرجة أن المرء -دون أن يعي تماماً من يكون وما يحتاج إليه فعلاً- يعلم غريزياً ما لا يعجب به أو يلائمه. واسمحوا لي بأن أكرر القول إن الكائن البشري، هو من ناحية إنثروبولوجية، مخلوق جمالي قبل أن يكون كائناً أخلاقياً. ولذلك ليس الأمر أن الفن، أو أي أدب معين هما، نتاج عارض لتطور نوعنا، بل العكس هو الصحيح. فإذا كان ما يميزنا عن الأعضاء الآخرين في مملكة الحيوان هو النطق، فإن الأدب - وخاصة الشعر بوصفه أعلى شكل من أشكال التعبير- يكون صراحة، هدف النوع الذي ننتمي إليه.

إني أبعد ما أكون عن اقتراح فكرة التأهيل الإجباري في كتابة الشعر؛ ومع ذلك فإن تقسيم المجتمع بين مثقفين و «كل الطبقات الأخرى» ليبدو أمراً غير مقبول. فهذه الوضع بالمعنى الأخلاقي يقارن بتقسيم المجتمع بين فقير وغني؛ أما إذا كان ما يزال ممكناً أن نجد أسباباً طبيعية أو مادية لوجود تفاوت اجتماعي، وتفاوت فكري فهذه تغدو مستبعدة. وإنني لا أتحدث عن التعليم وإنما عن تعلم الحديث، حيث قد يؤدي أقل قدر من عدم الدقة إلى طرح خيار زائف إلى حياة المرء. فوجود الأدب يمثل وجوداً سابقاً على صعيد مستوى نظر الأدب - ليس بالمعنى الأخلاقي فحسب، وإنما بالمعنى المعجمي أيضاً. فإذا كانت القطعة الموسيقية ما تزال توفر لشخص ما إمكانية الاختيار بين دور المستمع السلبي ودور العازف الإيجابي، فإن عملاً من أعمال الأدب -ومن أعمال الفن وهو- حسب عبارة مونتال - يتصل بعلم دلالات الألفاظ إلى حد ميؤوس منه، يقيده بدور منفذ العمل وحسب.

يبدو لي أنه يجدر بالمرء، أن يظهر، في هذا الدور، أكثر من أي دور آخر. ويبدو، أيضاً، أن هذا الدور يغدو نتيجة الانفجار السكاني وما يرافق ذلك من ازدياد تشظي المجتمع (أي عزلة الفرد باطراد)، محتماً أكثر فأكثر على الشخص الاضطلاع به. ولست أحسب أني أكثر معرفة بالحياة من أي شخص من أبناء عصري، إنما يلوح لي، من موقع المحدّث، القول إن الكتاب خير جليس، أو أدعى حبيب للثقة. فليست الرواية أو القصيدة منولوجاً، بل حديث كاتب وقارئ، حديث، وأكرر القول إنه حديث خاص جداً، يستبعد الآخرين كافة - وإذا شئتم هو حديث ينطوي على بغض متبادل. وفي لحظة هذه المحادثة فإن الكاتب مساو للقارئ، والعكس

صحيح أيضاً، سواء كان الكاتب عظيماً أم لم يكن. وهذه المساواة هي مساواة الوعي. تلازم المرء مدى الحياة في شكل ذاكرة، مشوشة كانت أم واضحة؛ وهي - إن عاجلاً أم آجلاً، سواءً على الوجه السليم أم لا - تحكم سلوك المرء. وهذا على وجه التحديد ما يراود خاطري عند الحديث عن دور المنفذ، وهو أمر طبيعي أكثر لمن يجد الرواية أو القصيدة نتاج الوحدة المشتركة - وحدة الكاتب أو القارئ.

يعد الكتاب في تاريخ نوعنا -أي الإنسان العاقل- تطوراً إنثروبولوجياً شبيهاً في الجوهر باختراع العجلة. ذلك أن الكتاب -الذي ظهر ليقدم لنا فكرة ما ليس عن أصولنا بقدر ما أن هدفه عرض ما يقدر عليه العقلاء علينا- يشكل وسيلة نقل عبر فضاء التجربة، بسرعة قلب الصفحة. وتصبح هذه الحركة، شأنها شأن كل حركة، طيراناً من القاسم المشترك، من محاولة لرفع خط هذا القاسم، ولم يكن ليزيد ارتفاعه من قبل عن مستوى أصل الفخذ، أو مستوى قلبنا، أو وعينا، أو مخيلتنا. وهذا التحليق إنما هو تحليق باتجاه «شكل غير مألوف»، باتجاه الاستقلال، باتجاه المحصي، باتجاه الخصوصية. بصرف النظر عن الصورة التي خلق عليها هناك خمسة مليارات منا، وليس للإنسان من مستقبل آخر سوى ما يرسمه الفن. وإلا فإنه ليس أمامنا إلا الماضي - الماضي السياسي أولاً، بكل أسباب الترفيه البوليسية الجماهيرية.

مهما يحدث في ظروف المجتمع، الذي يكون الفن فيه عموماً، والأدب خصوصاً ملك أقلية أو امتيازاً لها، يبدو لي ذلك ليس صحياً، بل إنه خطر. ولست أدعو إلى الاستعاضة عن الدولة بمكتبة، وإن كانت قد راودتني هذه الفكرة مراراً؛ ولكن ليس ثمة شك بأننا لو كنا نختار قادتنا على أساس

تجربتهم في القراءة وليس على أساس برامجهم السياسية، لكان الحزن على الأرض أقل. ويلوح أنه ينبغي أن يُسأل من يملك التحكم بمصائرنا، أولاً، ليس عما يتخيله أن يكون عليه النهج في السياسة الخارجية، وإنما عن موقفه حيال ستاندال وديكنز ودوستويفسكي. فلو كانت عدة الأدب التنوع والانحراف البشري وحسب، لكان الترياق الشافي لكل محاولة – مألوفة كانت أو في سبيلها لأن تبتكر - يهدف إلى حل جماعي للوجود البشري. والأدب بوصفه شكلاً من الضمانة الأخلاقية، في الأمل، أدعى للطمأنينة من منظومة معتقدات أو نظرية فلسفية.

ولما لم يكن هناك من قوانين تكفل حمايتنا من أنفسنا، فليس هناك من قانون جنائي يكفل منع الجريمة بحق الأدب؛ ومع أننا نملك أن ندين القمع المادي الذي يوجه ضد الأدب –مثل اضطهاد الكتاب وأعمال الرقابة وحرق الكتب– فإننا لا نملك فعلاً حولاً ولا قوة عندما يتعلق الأمور بأسوأ خرق: أي قراءة الكتب، لأن المرء يدفع عندئذٍ حياته كلها ثمناً لهذا الخرق؛ وإذا كان الشعب هو من اخترق الحظر، فإنه دفع الثمن بتاريخه. وإذا كنت قد عشت في البلد حيث أقيم وجدتموني أول من تهيأ للاعتقاد بوجود علاقة اعتماد متبادل بين رفاه الشخص المادي وجهله بالأدب. وما يحول دوني وهذا الأمر تاريخ ذلك البلد الذي نشأت فيه وترعرعت. ذلك أن الأدب الروسي، إن اختصر إلى الحد الأدنى في سبب ونتيجة، بحيث يغدو معادلة فجة، يكون بالضبط مأساة مجتمع صار الأدب فيه امتيازاً للأقلية: امتيازاً للطبقة المثقفة الروسية الشهيرة.

لست أود أن أتوسع في تناول هذا الموضوع في هذه الأمسية مع خواطر عن دمار عشرات الملايين من الأرواح البشرية على أيدي ملايين، كما

وقع في روسية في النصف الأول من القرن العشرين قبل انتشار الأسلحة الأوتوماتيكية - باسم انتصار عقيدة سياسية فسادها سابق إلى الظهور من أنها تقتضي لتحقيقها التضحية بالنفس البشرية. حسبي أن أقول إنني أعتقد -ليس تجريبياً وحسب، ويا للأسف، بل ونظرياً أيضاً- أن يقوم شخص قرأ كثيراً من أعمال ديكنز بقتل مثله باسم فكرة أشد إشكالاً مما لو أنه لم يقرأ ديكنز أصلاً. وأنا أتحدث على وجه الدقة عن قراءة ديكنز وستيرن وستاندال، ودوستويفسكي وفلوبير وبلزاك وميلفيل، وبروست وموزيل وغيرهم؛ أي الأدب وليس محو الأمية أو التعليم. إن شخصاً متعلماً مثقفاً قادر تماماً -بعد قراءة هذا الكتاب السياسي أو تلك الكراسة السياسية- على قتل من هو شبيه به، أو من يملك أن يخبر، بعد هذا، نشوة الاعتقاد. كان لينين متعلماً، وس آتين متعلماً، وذلك شأن هتلر أيضاً؛ أما ماوتسي تونغ فإنه كتب الشعر أيضاً. أما ما كان يجمع بين هؤلاء فهو أن لائحة المطلوب اغتيالهم لديهم كانت أطول من قائمة الكتب التي يريدون مطالعتها.

بيد أنني أود أن أضيف القول -قبل أن أنتقل إلى الشعر- إنه مما يتفق والمنطق عَدُّ التجربة الروسية ضرباً من النذير، إن لم يكن السبب سوى أن بنية الغرب الاجتماعية كانت حتى الآن، عموماً، مماثلة للبنية في روسية قبيل العام 1917. (ذلكم بالمناسبة ما يفسر رواج الرواية السيكولوجية الروسية التي تعود إلى القرن التاسع عشر في الغرب، وافتقار النثر الروسي المعاصر نسبياً للنجاح. ولا تبدو العلاقات الاجتماعية في روسية القرن العشرين أقل غرابة للقارئ من أسماء الشخصيات التي تحول دون تماهي القارئ معها. فمثلاً لم يكن عدد الأحزاب السياسية عشية انقلاب أكتوبر/تشرين الأول 1917، ليقل عما يمكن أن نجده اليوم في الولايات

المتحدة أو بريطانية. ولربما قال المراقب الهادئ النزيه إن القرن التاسع عشر ما زال - بمعنى ما - مستمراً في الغرب، بينما انتهى في روسية؛ وإذا قلت إنه انتهى بمأساة، فهذا يعود، في المقام الأول، إلى أن الثمن الإنساني الذي ترتب عليه سدد في مجرى ذلك التغيير الاجتماعي - أو الزمني. لأن في المأساة الحقيقية ليس البطل الذي يغني - بل الكورس.

## III

لئن كان الحديث في الشر السياسي لإنسان لغته هي اللغة الروسية، أمراً طبيعياً مثل عملية الهضم، فإنه يطيب لي، مع ذلك، أن أنتقل إلى موضوع آخر. فما يؤخذ على الخوض في ما هو واضح أنه يخرب الوعي بيسر، بالسرعة التي يقدم بها للمرء راحة معنوية، مع الشعور بصواب ما يقال. وهنا تكمن الغواية في القول، وهذا شبيه بطبيعته بغواية المصلح الاجتماعي الذي يحمل هذا الشر. وهذا الإدراك -أو بالأحرى، فهم الغواية هذه، ورفضها- ربما كان المسؤول عن مصائر كثيرين من معاصريه، وعن الأدب الذي خرج من تحت أقلامهم. فذلك الأدب، ما كان هروباً من التاريخ أو كتماً من الذاكرة، كما قد يبدو من الخارج. وقد تساءل أدورنو: «كيف نكتب موسيقا بعد أوشفيتز؟»؛ إن من له إلفة مع التاريخ الروسي، له أن يطرح السؤال ذاته، حسبه أن يستبدل اسم المعسكر - ويكرره ربما بمبرر أكبر، طالما أن عدد الذين تم إفناؤهم في معسكرات س آتين يفوق عدد ضحايا المعسكر الألماني. وكان الشاعر الأمريكي مارك ستراند قد طرح تساؤلاً مفحماً: «كيف بوسعكم أن تتناولوا الغداء؟». وعلى أي حال، فإن الجيل الذي أنتمي إليه قد برهن على أنه قادر على كتابة تلك الموسيقا.

ذلك الجيل -الجيل الذي ولد تحديداً في الوقت الذي كانت محرقة أوشفيتز تعمل بأقصى طاقتها، حين كان س آتين في ذروة سلطانه الإلهي المطلق الذي يبدو أن أمنا الطبيعة ذاتها كانت ترعاه- قد ولد في العالم، كما يبدو، لاستمرار ما كان -نظرياً- يفترض أنه قد اختل في هذه المحارق والمقابر الجماعية المجهولة في أرخبيل س آتين. أما أن الانقطاع لم يصب كل شيء، فأمر يمكن عزوه إلى حد غير قليل إلى الجيل الذي أنا في عداده، وإنني لست أقل فخراً بانتمائي إليه مما أنا عليه حين أقف ههنا اليوم. وإذا كنت أقف هنا فهذا إقرار بالخدمات التي أداها ذلك الجيل للثقافة؛ وإذ أستعيد الآن عبارة لمندلستام، يطيب أن أضيف لثقافة العالم. وإذ أستعيد الماضي أملك أن أقول من جديد إننا كنا نبدأ في مكان خاو -بل الحق في خراب مفزع- وإننا، كنا، بالحدس أكثر منا بالوعي، نتطلع بالضبط إلى بعث أثر استمرار الثقافة، إلى إعادة بناء أشكالها ورموزها، لملء بعض أشكالها القليلة الباقية، وهي في الغالب ضعيفة، بما لدينا من محتوى جديد، أو يبدو لنا جديداً معاصراً.

كان هناك -على ما يفترض- طريق جديدة. طريق المزيد من التشوه، شعر الخراب والهدم، والتقليص، والأنفاس المختنقة. فإذا كنا رفضنا ذلك، فليس السبب لأننا اعتقدنا أن ذلك الطريق الذي يمكننا من تصوير ذواتنا بطريقة مسرحية، أو لأننا كنا مسكونين إلى أبعد حد بفكرة الحفاظ على نبالة أشكال الثقافة، تلك النبالة الموروثة، كما عرفناها، أشكال كانت مساوية في وعينا لأشكال الكرامة الإنسانية. لقد رفضناها لأن الخيار لم يكن في الواقع خيارنا، وإنما، في الواقع، خيار الثقافة -وهذا الخيار- كما أقول من جديد - استطيقي أكثر منه خياراً أخلاقياً.

والحق، إنه لأمر طبيعي، أن يدرك المرء نفسه بوصفه أداة ثقافة، إنما العكس، أي مبدعاً وذا قيمة. ولكن إن كنت أشدو اليوم على النقيض فليس ذلك لأن ثمة ما يغري - ونحن نقترب من نهاية القرن العشرين - باعتماد عبارات من بلوتينوس أو لورد شافتسبري، أو شيلينغ أو نوفاليس، وإعادة صياغتها، بل لأن الشاعر - وهو في ذلك لا يشبه أحداً آخر - يعلم دوماً أن في ما يسمى اللغة الدارجة صوت الإلهام، هو في الواقع، أمر صادر عن اللغة؛ وليس الأمر أنه صادف أن كانت اللغة أداته، وإنما هو أداة اللغة التي به تستمر. إلا أن اللغة وإن تخيلها المرء على أنها مخلوق ما حيٌّ (وهذا اعتقاد صحيح في الحقيقة)، إلا أنها غير قادرة على اتخاذ خيار أخلاقي.

يتهيأ المرء ليضع قصيدة لأسباب متعددة مختلفة: ليفوز بقلب حبيبته؛ للتعبير عن موقفه من الواقع من حوله، مشهد طبيعي استأثر باهتمامه، أو حالة عرضت له؛ ليقبض على حالته العقلية في لحظة معينة؛ ليخلف -كما يعتقد في تلك اللحظة- على الأرض أثراً. إنه يلجأ إلى هذا الشكل - الشعر - في الأرجح لدواعي محاكاة غير واعية: الكتلة السوداء الشاقولية من الكلمات على صفحة الورق البيضاء، يفترض بأنها تذكِّره بوضعه في العالم، بالتوازن بين المساحة وجسمه. ولكن بصرف النظر عن الأسباب لحمله القلم، وبصرف النظر عن الأثر الذي أحدثه ما يظهر من تحت القلم على جمهوره -مهما كان كبيراً أم صغيراً- فإن النتيجة المباشرة المتأتية عن هذا المشروع هي الإحساس المتحقق بالاتصال المباشر واللغة، أو بدقة أكثر، الإحساس بالوقوع مباشرة في الاعتماد عليها، على كل ما سبق أن نطق وكتب وأنجز في هذا العمل.

إن هذا الاعتماد مطلق، وطاغ؛ لكنه أيضاً راسخ لا يتزعزع. لأن اللغة، وإن تكن دوماً أقدم عهداً من الكاتب، ما زالت تمتلك الطاقة الهائلة النابذة

التي تمدها بها إمكاناتها الزمانية - أي السبق بالزمن. وهذه القدرة لا تتحدد بالجسم الكمي الذي تنطق به الأمة وحسب (وإن كانت تتحدد به أيضاً)، بقدر ما تتحدد بمستوى الشعر الذي كتبت به.

حسبكم أن تستذكروا المؤلفين الإغريق والرومان القدامى؛ حسبكم أن تستذكروا دانتي. وما يُبتدع اليوم بالروسية أو الإنكليزية، مثلاً، يكفل لهاتين اللغتين الوجود على مدى السنوات الألف القادمة أيضاً. إنه ليطيب لي أن أكرر أن الشاعر أداة اللغة للوجود -أو أنه- كما قال محبوبي أودين - من تعيش به. وأنا من أكتب هذه السطور سوف ينتهي وجودي؛ وكذلك أنتم يا من تقرؤون. ولكن اللغة التي طالعتم بها هذه الكلمات سوف تبقى، ليس لأن اللغة أكثر ديمومة من صاحبها وحسب، وإنما لأنها أقدر على التغيير والتحول.

إن من يكتب قصيدة، على كل حال، لا يكتبها لمجرد أنه يطلب الشهرة عند الخلف، وإن كان يأمل أن تخلد القصيدة من بعده، على الأقل حيناً. ومن يكتب قصيدة إنما يكتب لأن اللغة تحث، أو ببساطة تملي الشطر الآتي. فالشاعر لا يعلم -بناءً على قاعدة- حين يبدأ قصيدة في أي اتجاه سوف تتجلى، وأحياناً يفاجأ أشد مفاجأة بالنحو الذي تصير عليه، لأنها تكون في كثير من الأحيان أفضل مما توقع، وكثيراً ما يمضي به الخاطر أبعد مما كان يدري. وتلكم هي اللحظة حين يغزو مستقبل اللغة حاضرها.

هناك، كما نعلم، ثلاثة أنماط من التفكير: التحليلي والحدسي والنمط الذي عرفه الأنبياء في الكتاب المقدس، الكشف. وما يميز الشعر عن أشكال الأدب الأخرى أنه يستخدم الأنماط الثلاثة جميعها في آن واحد، متجهاً

أساساً نحو النمطين الثاني والثالث. والسبب في ذلك أن الأنماط الثلاثة تتوافر في اللغة؛ وهناك أوقات يتمكن فيها كاتب القصيدة بعبارة واحدة، بقافية مفردة، من أن يضع نفسه حيث لم يسبقه أحد، بل ربما حيث لم يكن يتمنى أن يجد نفسه. والذي يكتب قصيدة إنما يكتبها قبل كل شيء لأن كتابة الشعر مصعد خارق للضمير، وللتفكير، ولفهم الكون. وإذا ما خبر المرء هذا الصعود مرة، ما عاد يستطيع بعدئذ أن يدع فرصة لتكرار هذه التجربة؛ والمرء يدمن هذه العملية مثلما يدمن الآخرون المخدرات والكحول. وأحسب أن من يجد نفسه قد استولى عليه إدمان اللغة هذا بات من يسمونه شاعراً.

نقلها من الروسية إلى الإنكليزية

باري روبن

## وولي سوينكا

# لا بد للماضي من أن يخاطب حاضره 1986

ولد وولي سوينكا Wole Soyinka في أبيوكوتة، بالقرب من إيبادان، في غرب نيجيرية. وأمضى عدة سنوات في إنجلترة في خمسينيات القرن العشرين قبل أن يعود في العام 1960 لدراسة المسرح الإفريقي. وكتب سوينكا أثناء الحرب الأهلية داعياً إلى وقف إطلاق النار، مما أدى إلى اعتقاله قي العام 1967 بدعوى التآمر مع متمردي بيافرا. وقد استمر اعتقاله بوصفه سجيناً سياسياً 22 شهراً.

نشر سوينكا أكثر من عشرين عملاً من المسرحيات والروايات والشعر. واهتم في كثير من أعماله بالاضطهاد الاجتماعي والسياسي، وكان صوتاً ناقداً لعدة أنظمة نيجيرية. ويكتب بالإنكليزية، ويتسم عمله بالثراء ورحابة مجال الكلمة. وتعتمد عددة مسرحيات على المدرسة الإفريقية التي تجمع بين الرقص والموسيقا والحركة، وكذلك على أساطير قبيلته، اليوروبا. تضم مسرحيات سوينكا Swamp Dwellers (سكان المستنقع) The Trial of Brother Jero (محاكمة الأخ جيرو) Death and the King's Horseman (الموت وفارس الملك) The Bacctiae of Euripides (باخوس يوربيديس). وكتب روايتين: The Interpreters (المترجمون) و Season of Anomy (موسم

الانحلال)، ومن أعمال السيرة الذاتية Prison Notes: The Man Died (الرجل الذي مات: مذكرات السجن)، و Ake (آكة). ونشر عدداً من المجموعات الشعرية Poems From the Prison (أشعار من السجن)، و A Shuttle in the Crept (مكوك بالشيفرة)، وMandelas Earth and Other Poems (أرض مانديلا وأشعار أخرى).

كرمت الأكاديمية سوينكا الذي «يصوغ دراما الوجود من منظورات ثقافية واسعة بمسحات شعرية».

في جناح من أجنحة أحد المسارح في لندن كان ثمة مشهد، يستلفت الاهتمام، ولم يكن ضمن نص المسرحية، يجري في ذات الوقت، الذي تمثل فيه المسرحية الأساسية المعدة للعرض، أمام جمع من المشاهدين. وهاكم ما حدث: يرفض أحد الممثلين اعتلاء خشبة المسرح لأداء الدور المعهود إليه. فتتوقف المسرحية، ويحاول أحد الزملاء الممثلين إقناعه بالخروج والظهور على الخشبة، ولكنه يهز رأسه رافضاً بعناد. ثم ينشب عراك. فقد كان الممثل الثاني يأمل أنه بكشف الممثل الرافض أمام المشاهدين فجأة تحت الأضواء المسلطة، سوف يسقط بيده ولن يكون أمامه من مخرج سوى الانضمام من جديد إلى الممثلين في المسرحية. وهكذا حاول أن يأخذ الممثل المقصر على حين غرة ويجذبه نحو خشبة المسرح. ولكنه لم يفلح تماماً في محاولته، فدارت مشادة قصيرة بين الاثنين، وكان الممثل المعاند المغلوب فيها مجللاً بالحرج – فقد كان بعض تلك المشادة ظاهراً لبعض الجمهور.

حري بنا أن نذكر أن العمل ذاته كان مرتجلاً ويدور حول حادثة معينة. وهذا يعني أن الممثلين كانوا أحراراً –في حدود مفهوم المشهد– في أن

يتوقفوا، ويجروا تعديلاً في أي جزء كما يشاؤون، أو أن يدعوا المشاهدين إلى خشبة المسرح، ويتولوا تعيين الأدوار أو تغيير الملابس على مشهد من الجمهور تماماً. ويمكنهم إذاً أن يقحموا في التمثيلية ما يودون بما يحمل ذلك الممثل غير المتعاون على الانضمام إليهم - وهذا ما فعلوه بكثير من السرور والحبور. وكان هذا الممثل قد غادر المسرح فعلاً قبل أن يبدأ مشهد الصراع «في المسرحية». وكان قد أنذر الفرقة أثناء التدريبات بأنه لن يشارك في المسرحية. ولئن كان له الفوز في النهاية، لكن كان لما حصل أثر سيئ أزعجه طوال أسابيع. فوجد نفسه مضطراً لحل هذا الخلاف بينه وزملائه من الكتاب والممثلين. فقد عصفت به، من جهة، ثورة غضب شديد لأن هذا الشجار جعله يظهر عاجزاً عن مواجهة حقيقة واضحة، وبدا أنه يعاني من خجل تأويلي ما جعله يظهر رازحاً تحت وطأة واقع قاس، أو ربما حمله استغراقه العاطفي في الحادثة موضوع المسرحية بعيداً فأثر على إرادته المهنية. كان الممثل يعلم طبعاً أنه ليس في الأمر شيء من هذا كله. والحقيقة أبسط من ذلك. فقد كان على العكس من زملائه الذين كان يشاركهم المواقف السياسية ذاتها حيال الحادثة التي كانت موضوع المسرحية، إنما وجد طريقة عرض الحرب بالبشاعة التي حاولت أن تصورها، تثير اضطراباً شديداً عن وجوده عينه على خشبة ذلك المسرح، في ذلك المكان، أمام جمهور من المشاهدين يعدّهم مسؤولين عن تلك الحادثة التي تجرد المرء من إنسانيته.

والآن دعونا نزيح بعض الغموض ونجعل ما جرى أكثر واقعية. كان المشهد في ذي رويال كورت تياتر، بلندن، عام 1958. في إحدى أمسيات الأحد التي تكرس للتجريب، وهو ابتكار خرج به ذلك المخرج ومدير

المسرح الفذ جورج ديفاين الذي أدت رعايته الخلاقة إلى تثوير المسرح البريطاني في تلك المدة، وقدم فيما بعد أيقونات مثل جون أوزبورن، وإن. ف. سيمبسون، وإدوارد بوند، وآرنولد ويسكر، وهارولد بينتر، وجون آردن وغيرها...، بل وفرض على الذوق البريطاني المحافظ أن يجرب ضالين أسلوباً وإيديولوجية أمثال صموئيل بيكيت وبرتولد بريخت. وكانت الأمسية في هذه المناسبة الخاصة تكرس لتقديم شكل من المسرح «الحي»، وكانت الوجبة الرئيسة «Eleven Men Dead at Hola»: «أحد عشر ميتاً في هولا». ولم يكن جميع الممثلين في تلك الأمسية محترفين؛ بل الحق أن معظمهم كانوا كتاباً وضعوا هذه المقطوعات الدرامية، وهم الذين كانوا يقومون بتأدية الأدوار فيها. وقد يتذكر من له ذاكرة سياسية بعيدة ما كان يجري في معسكر «هولا» بكينية أثناء كفاح الماو ماو في سبيل التحرير. وكانت السلطة الاستعمارية البريطانية تعتقد أنه يمكن سحق الماو ماو بالزج بالكينيين في معسكرات خاصة، بقصد عزل الحالات المستعصية والمشكوك بأمرهم والعناصر المهيأة للالتحاق بالثورة – آه، إنهم أحسنوا عرض الأمر، ووضعوا لكل أمر حسابه. وكان من بين تلك المعسكرات، معسكر هولا، والحادثة تتصل بمقتل أحد عشر معتقلاً تحت التعذيب والضرب المبرح حتى الموت من ضباط المعسكر وحراس السجن. وجرى التحقيق المعتاد، وفي الواقع كان التقرير هو النص الأساسي للمسرحية التي يجري تمثيلها.

حسبنا اليوم أن نعرف الممثل المتردد، إن لم تكونوا قد خمنتم من هو حتى الآن – لم يكن هذا الممثل المتعنت سوى محدثكم، وما زالت تلك المناسبة، ماثلة حية في ذاكرتي، وأذكر ذلك لأنه عرف عن الممثلين ضعفهم في تذكر

لحظات الظلمة الرهيبة التي تصيب الذاكرة مرة بعد مرة، حين لا تُنسى النصوص وحسب، بل واللحظة في المسرحية. وكان الدور الذي أُسند إلي دور حارس في المعسكر، أحد القتلة. وكنا مزودين بهراوات الشرطة، وبينما يقرأ الراوية شهادة أحد الحراس، كانت مهمتنا أن نرفع الهراوة ببطء، يكاد يكون طقسياً، ثم ننزل بها على رقاب المساجين وأكتافهم، بأوامر من ضباط المعسكر البيض. كان مشهداً سريالياً. وكان واضحاً في التدريب أيضاً، أن الناتج سيكون لوحة سريالية.

الراوي عند منضدة التلاوة، تحت الأضوء؛ والقراءة هادئة متأنية، رصينة، تدع الوقائع العارية تكشف الحالة العقلية للجلادين والضحايا. حلقة صغيرة من الضباط البيض، مسلحون ينتزع أحدهم هراوة من أحد الحراس، ليوضح كيف يكون ضرب إنسان دون أن يترك ذلك عليه علامات ظاهرة. ثم هناك الجماعة الداخلية من المعتقلين، وسلاحهم الوحيد – عدم العنف. اتخذ هؤلاء قرارهم بالإضراب، ورفضوا العمل حتى تتحقق لهم ظروف أفضل في المعسكر. وهكذا كان أن جلسوا القرفصاء على الأرض رافضين أن يتزحزحوا عن مكانهم، وقد عقدوا أيديهم حول ركبهم في تحد صامت. صدرت الأوامر. تحركت الحلقة الداخلية من الحراس، السود، ونقلوا الأجسام بإدخال أيديهم تحت إبط المعتقلين، وحملهم وكأنهم ضفادع مصلوبة على جنباتها، وقاموا بتوزيعهم في مجموعات.

وجوه الضحايا خالية من كل تعبير، كان عزمهم قد استقر على عدم إبداء مقاومة. تبدأ عملية الضرب: ضربة على الجانب الأيسر فالظهر فالذراعين – يمين، يسار، أمام، خلف. كل ذلك بإيقاع منتظم. الهراوات في حركة موحدة. تتوهج وجوه الحراس البيض بألق يعبر عن رضا مهني،

أذرعهم تتحرك بين الحين والآخر بفتور، بما يعني أن الوقت حان للانتقال إلى شرذمة أخرى، أو الضرب بشدة أكبر على الجانب الذي أهمل ولم ينل نصيبه بعد. وحسب الصور، سائل، مشهد يشبه رقصة باليه.

ويبرز التضاد، الرواية الرسمية المبكرة، وتصور الكيفية المفترضة لموت المساجين. وتدعي هذه الرواية أن الانهيار أصاب المساجين، وحدثت وفاتهم بعد أن شربوا ماء مسموماً. لذا أدينا هذا المشهد أيضاً. مضى صف المساجين إلى صهريج الماء يلهثون من شدة الظمأ. وبعد أن نهل اثنان أو ثلاثة الماء أخذوا يتلوون من الألم، فهرع هؤلاء الحراس أصحاب الإنسانية والشفقة لمنع الآخرين من الشرب، ولكن كان العطش قد نال منهم، فراحوا يشقون طريقهم إلى الخلاص بالضرب، فوصلوا إلى الماء وأخذوا ينهلون منه، من المصدر ذاته، وانتشر الأنين من واحد إلى آخر، وصاروا يتلوون من شدة الألم، ثم حدث الانهيار – والاحتضار والموت. كانت هذه رواية القائمين على المعسكر.

كان الموضوع بسيطاً جداً، والصيغة المسرحية مُجرَبة متمكنة أمينة وحسب تقليد معين. فما المشكلة، إذاً؟ كانت المشكلة –حسب اعتقادي– تمس معظم الكتاب. حين يكون الواقع يكذب التمثيل؟ عندما تكون القصة ابنة المخيلة ادعاء؟ ماذا يحدث بعد التمثيل؟ إن أحد الخصائص البارزة في أي عرف مسرحي كنت قد عرضت له أنه ينفث عطراً نافذاً من الديمومة، ذلك الشعور الذي يحملك على القول: «عرفت هذا من قبل». «لدي شاهد على هذا». «الماضي يمثل حاضره». في حالة كهذه، يمكن لمفهوم الديمومة أن يكون طارداً للشر، وشهادة تحرير، أو بالفعل –خاصة للحضور– منوماً. علينا أن نتذكر أن كل موت لأحد المقاتلين في

سبيل الحرية، وقت العرض، وللغالبية العظمى من الحضور، كان علامة محفورة على أحد المسدسات، موت عدو لدود، حيوان، طفرة حيوانية، وليس استشهاد رجل وطني.

كذلك نعلم، على كل حال، أن من شأن جهود كهذه أن تُحدِث تغييرات، وأن من شأن تحقق الملاحظة الإحصائية الصحفية أن تحدث تحريضاً في العقل المطمئن الراضي، مؤدية إلى بداية التزام بالتغيير، العلاج. في هذه المناسبة ثارت أسئلة غاضبة في دوائر البرلمان. فنهض الليبراليون وأهل الخير والإصلاحيون لمناصرة قضية إقرار العدالة للضحايا. بل ولقد مضى بعضهم إلى كينية لمعرفة تفاصيل أدت إلى فضح الكذب الرسمي. وإذاً فقد كان هذا الضيق العظيم الذي شل إرادة الإبداع لدي، أبعد من جمهور الحضور، ومضيت، في النهاية، أبحث عن جذوره في مشاعري عن الإنسانية المتأذية وما أحدث من الضجيج والجلبة لتستدعي استجابة مختلفة. لقد أثار ذلك في نفسي شعوراً بالخجل حيال ذلك العرض، شعوراً أشبه بالشعور الذي تثيره ذراع مصاب بالجذام حين تدفع إلى من هو سليم معافى لتبعث فيه مشاعر الرحمة ورغبة الإحسان. أحسب أن هذا كان سبب الرفض غير المفهوم والداخلي تماماً الذي هزّ مقتضيات رسالتي، وجعلها قاصرة، واستخف بتعاطف زملائي. وكان الأمر وكأنما قدرة غير إنسانية، كان ذلك المشهد مجرد شذرة منها، تقول لنا: لطفاً اجعلوا عاطفتكم التي إليها تستريحون شأنكم وحدكم.

طبعاً إني أوظف تلك الحادثة بوصفها مجرد تصوير لعمليات أعمق مستنبطة يقوم بها العقل المبدع، وهذه عملية تهدد الكاتب بالخطر من ناحيتين: فإما أن يتجمد تماماً، وإما أن يهجر القلم إلى وسائل أكثر منه

مباشرة في التصدي لواقع غير مقبول. ومن جديد يقدم معسكر هولا وسيلة مريحة لتناول ذلك الوجه من واقع قارتي الذي يمثل لنا -نحن الذين يواجهنا مباشرة- أعظم تهديد للسلام العالمي في وجودنا فعلاً. ولأن هناك استنساب شنيع في أن يقف إفريقي، رجل أسود، هنا اليوم في العام ذاته الذي قُتل فيه التقدمي رئيس وزراء هذا البلد المضيف، وفي العام ذاته الذي أنزل فيه سامورا ميشيل في أرض الأوصياء اليائسين المتمسكين بالخندق الأخير للقائمين على نظرية التفوق العنصري التي جلبت كثيراً من الشقاء لإنسانيتنا الجامعة. ومهما تكن الوقائع المتعلقة باغتيال أولوف بالمه فإنه ليس هناك من شك في أمر حياته. فقد أعلن، لا! قاطعة جازمة، وتصرف على هذا الأساس، حيال الاضطهاد العنصري الذي ينزل بقطاع عظيم من الإنسانية. ولعل أولئك الذين استثارهم عمل «الخيانة» العنصرية كان بهم من انحراف البصيرة ما جعلهم يتخيلون أن موت فرد كفيلٌ بأن يوقف مسيرة قناعاته؛ وقد تكون مجرد حالة أخرى من الرعب المعدي الذي يتغذى اليوم بالصدمة، لا بالعقل. وليس ذلك بالأمر المهم؛ فلقد أوقف ضمير أصيل في القبيلة البيضاء، وكانت الخسارة من نصيبكم ومن نصيبي معاً. لقد سقط سامورا ميشيل، الزعيم الذي وضع بلده في حالة حرب على جنوب إفريقية كذلك في ظروف غامضة. حقاً إننا ما زلنا مطاردين باتفاق نكوماتي الذي مسح تلك اللحظة الظافرة من الإرادة الإفريقية الجامعة؛ ومع ذلك وجد أعداؤه عبر الحدود سبباً وجيهاً للابتهاج لغيابه، وموته بهذا المعنى، ويا للسخرية، شكل من الانتصار للعرق الأسود.

هل يا ترى كانت تلك مفارقة أشد مما ينبغي؟ إذا كان الأمر كذلك، فاسمحوا لي عندئذٍ أن أعود بكم إلى معسكر هولا. إن الماشية هي التي

يقصد أن تساق بالعصا أو السوط. وكذلك الأحصنة والماعز والحمير وغيرها... ولذلك كانت الدواب تخضع تعريفاً للضرب حتى الموت. وهل من الممكن -بعد ثلاثين عاماً من حادثة معسكر هولا- أن يقتضي قتل مقاوم إفريقي تدخلاً من أشد الأجهزة الإلكترونية ابتكاراً، فإن في ذلك اعترافاً من أبطال العنصرية بما دأبوا على إنكاره أمام العالم: إنهم، سلالة العنصريين البيض المتفوقين، قد قطعوا شوطاً طويلاً في تعريفهم لعدوهم الذي اختاروه منذ حادثة معسكر هولا. وقطعوا شوطاً بعيداً لا يصدق منذ واقعة شاربفيل حين أطلقوا النار على ظهور إفريقيين عزل. كما ابتعدوا كثيراً منذ العام 1930، يوم أول حادثة منظمة لإحراق وثائق المرور، حين قرر السود في جنوب إفريقية أن يجعلوا من عيد دينغاآن، تذكيراً بالهزيمة التي نزلت بزعيم الزولو دينغاآن، ورمزاً للمقاومة الإيجابية بتمزيق ما كانوا يحملون من إجازات المرور المقيتة. ورداً على حرق الآلاف من إجازات المرور تلك في كارترايت فلاتس، نزلت شرطة دوربان بالمحتجين ضرباً، فقتلوا قرابة ستة أشخاص وجرحوا المئات. واتبعوا تلك المجزرة بحملة الأرض المحروقة، فأدت إلى تشتيت الآلاف من الإفريقيين بعيداً عن بيئتهم الطبيعية بين ضحايا السجن والترحيل. بل وكانت حملة القمع في العام 1930 قفزة نوعية مختلفة كل الاختلاف عن تظاهرة الاحتجاج العفوية السابقة على قانون إجازة المحليين في 1919، حين اقتصرت الشرطة فهاجمت المحتجين على ظهور الخيل، ومضوا يضربونهم بالسياط والهراوات ويطاردونهم ويلاحقونهم، وكأنما هم ماعز ضلت طريقها وأبقار شاردة، من زاوية الشارع حتى الأحياء الفقيرة. إن كل عمل من الإرهاب العنصري، بما هو عليه من ترقية الأسلوب على نحو متزايد وتبديد للحياة

البشرية إقرار في حد ذاته بتطور المعرفة، واحترام لما ينطوي عليه ما هو مدعاة للخوف، وإقرار بتسارع إيقاع انتصار الضحايا.

وكان ما يحملني على هذا الشعور وجه ألح علي أشد الإلحاح من تلك المحاولة لتكرار جريمة معسكر هولا: كان ذلك يلح، في مختلف الشهادات التي أدلى بها الضباط البيض، سواء كانت صريحة عبر نأيهم بجدارة عن المجزرة الدائرة. كانت هذه: لم يكن هؤلاء المشرفون البيض في أي وقت من الأوقات قد خبروا فعلاً إنسانية «الآخر» في ضحاياهم. وكان واضحاً أنهم لم يعاينوا حقيقة ضحاياهم من حيث إنهم كائنات بشرية. ربما كانوا حيوانات أو نوعاً من الحياة النباتية الضارة، إنما قطعاً ليسوا بشراً. وأنا لست أتحدث هنا عن أسيادهم الاستعماريين، أولئك الذين صاغوا وأيدوا سياسة الاستعمار الاستيطاني، أولئك الذين كانوا يرسلون رشاشات الماكسيم، وينفخون في البوق الإمبراطوري. وقد كانوا يعلمون حق العلم أن هناك إمبراطوريات قامت ولا بد من تحطيمها، وحضارات صمدت طوال قرون ولا بد من تدميرها. وغدا التشويه بالحط إلى ما دون البشر مبرر رسالتهم الحضارية بوصفها الدواء الخيري، مجرد تبريد عقلاني على قمة كعكة الجشع الإمبريالي. ولكن نعم كانت هناك حقاً العناصر التي تلقت الأوامر (مثل إيخمان لعقد مقارنات من القارة البيضاء)؛ وكان هؤلاء -سواء كانوا بيروقراطيين، أم تقنيين، أم حكام معتقلات- يفتقرون لمساحة تختص برسم التصورات في رؤوسهم ليمكن ملؤها -إلا في حالات نادرة واستثنائية- بتصور «الأسود إنسان أيضاً». ومن الصواب القول إن هذا الوضع ظل علم الأمراض الذي يختص بالجنوب أفريقي الأبيض

العادي منذ مطلع القرن الماضي حتى هذه اللحظة. هاكم على سبيل المثال أحد الاعترافات الصريحة التي أدلى بها عقل راديكالي متنور منصف من ذلك القرن:

لم يكن ليخطر لي ببال، حتى السنة الأخيرة في المدرسة، أن هؤلاء القوم السود، وهذه الحشود التي لا صوت لها، تعنى بأي شكل بالاشتراكية التي كنت أعتنقها، أو أن لهم أي دور في الثورة الاشتراكية العظيمة التي بدا في تلك الأيام أنها واقعة لا محالة. وكان «العمال» المقدر لهم أن يرثوا العالم الجديد هم طبعاً النجارين وعمال البناء والحافلات والمناجم البيض المنظمين في نقاباتهم، الذين صوتوا لصالح حزب العمال. وما كان ليخطر لي ببال أن أخوض في نقاش سياسي وشباب من سكان البلاد الأصليين بأكثر مما خطر ببالي أن أدعوه إلى البيت ليلعب وإياي للتسلية أو يتناول الطعام، أو ينضم إلى نادي كرة القدم كارنارفون. كان الإفريقي على مستوى مختلف، يكاد لا يعد بشراً، وكان بعضهم يتصورهم مثل الكلاب والأشجار، وأبعد من ذلك البقر. ولم تكن تراودني مشاعر خاصة حياله، ولا اهتمام أو كراهية أو حب. وهكذا تقبلت المواقف التقليدية السائدة على وجه الإطلاق.

أجل، أعتقد أن هذا التحليل الذاتي الذي قدمه إدي رواكس، الإفريقي الثائر السياسي والعالم يظل الحقيقة البسيطة غير المزوقة الصادقة التي تسري لدى غالبية الإفريقيين. «لا مشاعر خاصة، ولا اهتمام، ولا كراهية ولا حب»، تلكم هي نتيجة التسليم المطلق بـ «المواقف التقليدية». يصور ذلك المقطع إن شئتم اللوح الأملس العنصري، العقل قبل أن يتلقى تأثيرات خارجية -في العقد الأول من هذا القرن- قرابة الوقت، باختصار، الذي

افتتحت فيه سلسلة من جوائز نوبل. ولكن لوحاً من الحجر الاردوازي لا يملك مهما يكن نظيفاً أن يفلت من تلقي الانطباعات حالما تتعرض للهواء. ونحن الآن في العام 1986، أي بعد قرن بالتمام والكمال من الكشف المباشر والحميم، منذ تلك المواجهة، ذلك الرفض الأول للوصمة المهينة للإنسانية المتضمنة في قوانين إجازات المرور للمحليين.

كان إدي روكس -شأنه في ذلك شأن المئات، بل الآلاف من مواطنيه- سريعاً إلى قطع الأشواط. فقد قدم أبناء جلدته قائمتهم من شهداء قضية اللاعنصرية. والمرء يذكر، بشيء من الألم، روث فيرست التي قتلت برسالة ملفوفة سلمتها ذراع الأبارتيد، الفصل العنصري، الطويلة. وهناك آخرون - أندريه بلينك، آرام فيشر، هيلين سزمان، برايتن برايتنباخ - وعلامات الاستشهاد ما تزال محفورة في أرواحهم. مثقفون، وكتاب، وشهداء، وعمال عاديون وسياسيون - هؤلاء يبلغون جميعهم تلك النقطة حيث لا يعود يمكن للواقع الاجتماعي أن يلحظ بوصفه حضارة شريحة تفحص تحت عدسة المجهر، أو تنقلب إلى تقاسيم جمالية على صفحات أو قطعة خيش يرسم عليها الرسام لوحاته، أو خشبة المسرح. والسود في هذا عالقون في حالة واضحة لا لبس فيها: لست بحاجة في هذه المناسة لمخاطبة قومنا. إننا نعرف رسالتنا ومتمسكون بها. إنه الآخر الذي يغتنم هذه فرصة السابقة ليخاطب -دون يقتصر على أولئك الذين سقطوا في الفخ داخل حدود ذلك المعسكر الملعون- أولئك الذين يعيشون خارجه أيضاً، على أطراف الضمير. هؤلاء الذين يبتدعون برضا عن النفس يدعو للخجل قضايا أخلاقية عفى عنها الزمن إنما تبرر لهم إعفاءهم من الالتزام بلغة من التطبيل السياسي لا سابق له: «إني شخصياً أجد العقوبات أخلاقياً

مدعاة للقرف». أو ماذا أقول في زعيم آخر يرى العقوبات الاقتصادية التي تأتي بجدواها في أوروبة الشرقية لن يكون لها تأثير على كيان الفصل العنصري في جنوب إفريقية، سيد المسرحيين المصطفين الذي يخرج على أمواج الأثير في العالم لينشد «دعوا بولونية حرة»، ولكنه ينزع أدوات السمع عن أذنيه حين يصرخ العالم: «دعوا نيكاراغوا حرة». ولكن حسبنا هؤلاء الزعماء المنافقون في القول والقيم.

إنه لأمر محير لأي عقل أن يدعي بأقل حق من العقلانية، ذلكم هو حقاً محيِّر ومربك إلى أبعد حد. فهل يمكن لهذه الأرض ذاتها أرض الاستيعاب الخارق- أي الأرض التي قدمت البرهان على القدرة على ترجمة الملاحظة التجريبية إلى مضامين تتصل بالسلوك العقلاني عند الإنسان -أفيمكن لهذه الأرض ذاتها- التي أنجبت على مدى أكثر من نصف قرن، أو خمسين سنة، قبل جيلين أو ثلاثة أجيال أمثال بنتينغ وروكس ودوغلاس ولتون، وسولي ساخس وجيديون بوثا - أن يسكنها بعد خمسين عاماً، أو ستين أو حتى سبعين جنس من البشرية نأى كل النأي عن التاريخ، إلى حد أن الإعلان الذي عرض بوضوح في العام 1919 عند طرق إجازات المرور يظل مجرد حادثة مزعجة لا دلالة دائمة لها؟

ثمة حشرة قديمة تفعل فعلها هنا وتتحدى كل تفسير علمي، تعليق في الزمن ضمن إجازة الطبيعة الثورية، تضع كل تجربة الإنسان في التعليم على المحك! وإذاً، علينا أن نتساءل أي حدث يملك أن يتحدث إلى هكذا ضرب من البشر؟ كيف نستطيع أن نبعث من جديد تلك الخلية المتحجرة التي تحتوي الخوف والتطور التاريخي؟ أفيمكن أنه ربما يكون لأحداث وتجمعات كهذه أن تفيد؟ أترانا نجرؤ على الطواف على حافة الإحساس

بالطمأنينة والثقة بالنفس ونقول: انظروا جيداً وقدموا جوابكم. وبرهنوا وأنتم على حالكم من القلق أن هذه اللحظة لا يمكن أن تكون، فقد عملتم قتلاً، وتشويهاً، وأخرستم ألسنة، وقمتم بالتعذيب والنفي، وحططتم من كرامة مئات الآلاف الذين يسكنون هذا الجلد عينه والمتوج يشعر كهذا، راضين عن وجودهم ذاته؟ فكم ممن يحتمل أن يصبحوا مشاركين في علم زراعة القلب بددتموهم هباء؟ كيف لنا أن نقدر كم من العلماء الجنوب إفريقيين السود كان يمكن أن نجدهم واقفين ههنا الآن، إن كنتم قد راودتكم الرؤى بأن تعملوا على تثقيف بقية العالم ليعرفوا قيمة المجتمع المتعدد الأعراق؟

لا ريب بأن جاك كوب قد أجمل الأمر في مقدمته لكتاب «الخصم في الداخل» The Adversary Within، وهو دراسة في التمرد في الأدب الإفريقي، حين يقول:

أعتقد أنه يمكننا القول، بإنصاف ونحن نسترجع الماضي من منظور الحاضر، إن الزعماء الأفريكان، في جوهر الأمر، قد قاموا في العام 1924 بانعطاف خاطئ. فقد كانوا هم أنفسهم ضحايا الإمبريالية في أشد تجلياتها سوءاً، ومع ذلك فقد فشلت معاناتهم والتضحيات الضخمة بالنفس في أن تنقل إليهم درس التاريخ الجلي. فقد غدوا أنفسهم الإمبرياليين الجدد. واستولوا من بريطانية على عباءة الإمبريالية والكولونيالية. وقد كان بوسعهم يومذاك أن يتصدوا لعمليات الضم والعدوان والاستغلال الكولونيالي والاضطهاد، والعجرفة العرقية والنفاق المفضوح، مما كانوا هم أنفسهم ضحاياه. وكان بوسعهم أن يفتحوا الأبواب للأفكار الإنسانية والعمليات الحضارية والانتقال بالمنطقة العظيمة وما لها من مصادر لا تعد ولا تحصى ليجعلوا منها عالماً جديداً آخر.

ولكن هؤلاء تعمدوا عوضاً عن ذلك أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الوراء، كلما استطاعوا ذلك. فإذا استولى هؤلاء على أكثر من عشرة ملايين من الرعايا سكان البلاد الأصليين من الحكم الاستعماري البريطاني، عمدوا إلى تجريدهم من كل حقوق محدودة حصلوا عليها عبر قرن من الزمن، وراحوا يكبلونهم بأصفاد القهر والإذلال.

حسناً، قد تكون الحروب على تشاكا، ودينغاآن وديجينسوايو، بل والقافلة الكبرى أيضاً ما تزال غضة في ذاكرتكم عن «اللجار»، ولكننا نقول إن ما يزيد عن قرن مضى منذ ذلك الحين، قرن قفز العالم فيه بإيقاع ما يعادل في الماضي ثلاثة قرون. ولقد رأينا إمكانات الرجل والمرأة –في العروق كافة– في تنافس يحتد بأشد الغيرة على سيادة الطبيعة والأكوان. وشهدنا الإبداع البشري يواجه في كل حقل، في الإنسانيات والعلوم، ويذلل من عداء بيئته، متكيفاً معها، معدلاً من حدتها، ويعمل فيها تحويلاً وتنظيماً بين أجزائها، بل و إخضاعها أيضاً. والإنسان في ذلك منتصر على الأخطاء ومستأنف العمل في الميادين التي خضعت، حين يتاح له الوقت للعق جراحه والإصغاء من جديد إلى مناشدات روحه. التاريخ - تأويلات التاريخ المشوهة والانتهازية قد تطهرت الآن واستعادت صدق حقيقتها. لأن الوشاة في تاريخ الآخرين كُشف أمرهم، وكلما تقدموا صار تقدمهم يمتنع وتكذبهم المساحات البيضاء التي أقحموها عمداً في تاريخ الآخرين. ولقد فرضت المصلحة الذاتية جولة أخرى من التحريفية - بداية تنازلات بسيطة شحيحة. ولكن ثغرة في السد كان قد تم فتحها وتتابعها منطقي الانهيار. ومن قلب الغابات، بل وقبل مساعدة آلات التصوير الدقيقة التي تنصب على الأقمار الصناعية لترصد ما يجري، بُعثت حضارات، وثقت

وجودها في أيقونات وفنون لا ينال من صدقها شيء. والأدعى للعجب بعد، أخبار الرحالة والتجار المغامرين في عصر لم تكن فيه أوروبة تحتاج للسيطرة على أقاليم لتغذي طواحينها الصناعية - تؤكد تلك الأخبار الموضوعية التي حملها البحارة من قديم الأزمان ما أثبتته كشوفات علم الآثار بأعلى صوت. فقد حدثتنا تلك الكشوفات عن مجتمعات حية تنظم شؤون حياتها، وأتت بعلاقة ناجحة مع الطبيعة تلبي احتياجاتهم وتكفل لهم مستقبلاً مأموناً بفضل عبقريتهم الخاصة. وهذه دوافع مشوبة بشوائب تغمض من هذا الاندفاع الصريح الذي أراد منه أصحابه خدمة أغراضهم الخاصة بتجريد مجتمعات مستقلة من مقومات كيانها ليسهل نهبها - وأشير بأصابع الاتهام دونما خطأ إلى حكماء التطور البشري وفلاسفته وعلمائه ومنظريه. وغوبينو اسم مدو، ولكن كم من دارسي الفكر الأوروبي اليوم -بيننا نحن الأفارقة أيضاً- يتذكرون أن عدداً من أعلام الفلسفة الأوروبية -هيغل، لوك، مونتيسكيو، هيوم، فولتير- والقائمة طويلة لا نهاية لها - كانوا منظرين صريحين يدعون إلى التفوق العنصري، ويحطون من التاريخ والكينونة الإفريقية. أما الأسماء الأبرز بين منظري الثورة والصراع الطبقي - فإنا سوف نسدل ستارة التخفيف على هفوتهم الفكرية، ونغفر لهم قليلاً لرؤاهم لنهاية الاستغلال البشري.

بيد أن الغرض ليس فعلاً، على كل حال، إدانة الماضي، إنما استدعاؤه لعناية حاضر انتحاري مفارق تاريخياً. أن نقول لذاك الحاضر الماثل: أنت ابن تلك القرون من الكذب والتشويه والانتهازية في المراتب الأعلى، حتى بين الأقدس في الموضوعية الفكرية. ولكن العالم في نمو، بينما أنت ما تزال قاصراً، طفلاً مشاكساً مكابراً مدمراً لذاتك، بقدرات تدميرية معلومة،

لكنك تظل مع ذلك طفلاً. وأن يقال للعالم، ويسترعى انتباه مسيرته التاريخية من الأكاذيب -وما زال بعضهم لا يعف عنها- ما يغذي التنطع الشرير لدى هذا الطفل. فأين إذاً تكمن المفاجأة التي نطالب لها، نحن ضحايا الغش الفكري لدى الآخرين، ذلك العالم الذي بدأ يستعيد وعيه، وفي ذلك شيء من الكفارة؟ طالباً أن ينقذ نفسه بأفعال جذرية من وصمة أبوة متعمدة لوحش مشوه، خاصة وأن ذاك الطفل الوحش الضاري ما زال يستمد غذاءه المادي والهواء والسمة الإنسانية من قوى ذلك العالم وأدواته بوساطة الحبل السري الذي يمتد عبر محيطات، بل عبر الكون أيضاً عن طريق ما يسمى برنامج التعاون التقني. نقول ببساطة شديدة إنما بإلحاح: اقطعوا الحبل السري، ابتروه بأي اسم تشاؤون: العقوبة الشاملة، أو المقاطعة، أو تجفيف الاستثمار أو ما شئتم، ابتروا هذا الحبل السري ودعوا وحش الولادة ليفسد ويموت أو يعيد بناء ذاته على أسس إنسانية، لينهار وقد قطعت عنه أسباب غذائه من الخارج، لينهار تحت وطأة اضطراب توازن مكوناته الاجتماعية، واختلال توازنه اقتصادياً، وحرب الاستنزاف التي تستهدف عماله الأغزر إنتاجاً. دعوه يذبل كما الجنين المجهض من العائلة الإنسانية إن استمر في العقول والأعضاء التي تشكل وجوده الأصيل.

هذا المجتمع الضال أي جنوب إفريقية الفصل العنصري يؤدي ألعاباً عديدة تتلاعب بالذكاء الإنساني. أصغوا إلى هذا، مثلاً. حين صعَّد العالم كله نداءه بإطلاق سراح نيلسون منديلا أعلنت حكومة جنوب إفريقية بلطف أنها مستمرة باعتقال نيلسون مانديلا للأسباب ذاتها التي حدت بقوات الحلفاء إلى الإبقاء على رودلف هيس في السجن! الحق

أن بياناً كهذا هو نداء واضح لمحبة السخف لدى كل إنسان. والحق أن هذا التصريح بدا لي وكأنه قصيدة شعر متهكم يصدر عني - رودلف هيس مثل نيلسون منديلا بوجه أسود! ماذا يمكن لكاتب أن يفعل سوى ذلك ليحمي إنسانيته أمام هجمات فظة كهذه! ولكن من ناحية أخرى أن يُقارن نيلسون مانديلا بالمجرم العتيد رودلف هيس فذلك تطوير رهيب في عدِّه دون رتبة الانسان. إن هذا لينتمي إلى المرتبة ذاتها التي تشمل تطوير سياسة الفصل العنصري بذاتها مثل النسبة بين شاربفيل وساحة فون برانديس، ذلك التشتيت الرحيم تقريباً، والقريب من العطف والتفهم، والذي اُتبع مع أول عصيان أعلنته الصحافة المحلية.

إن ذلك العالم الذي انتهكه على أحسن ما يكون فكر الفصل العنصري هو طبعاً العالم الذي أحبه بكل جوارحي - وهذا خياري - بين عدة خيارات - وهذا مغزى حضوري هنا. إنه عالم يغذي وجودي، خيار شديد الاكتفاء بذاته، حافل بكل أسباب الإنتاج، شديد الثقة بذاته وبالمصير الذي لا يخبر فيه بخوف من الاتصال بالآخرين وبالتجاوب فيما بيننا. إنه قلب الصخر في وجودنا المبدع. إنه يشكل موشور إدراكنا الحسي بالعالم وذلك ما يعني أن ليس لبصيرتنا من ضرورة ولم تكن لتحتاج إلى الالتفات دوماً نحو الداخل، ولو كان ذلك شأنها لما أمكننا أن نفهم العدو على مدخل الدار بمثل هذا اليسر، ولا أدركنا كيف نتدبر الوسائل لتجريده من السلاح. وحين يبدي هذا المجتمع وهو جنوب إفريقية الفصل العنصري عناية بتوجيه نداءات بين الحين والآخر إلى العالم الخارجي تفيد بأنهاآخر معاقل الحضارة، وهي تواجه جحافل البربرية الآتية من الشمال فإننا نملك حتى نوجه ابتسامة تسامح. حسبنا -وتخيلوا هذه الحالة- أن نشيع

خبراً عن بضعة قادة أفارقة مطاردين من العدالة، مرضى عقليين ورؤساء عصابات من قطاعي الطرق الذين نحن أنفسنا من ضحاياهم -ونحن ننكرهم أمام العالم، ونطيح بهم ما أمكننا ذلك- يصر مجتمع الفصل العنصري أمام العالم أن صورته للمستقبل هي الواقع الذي لا يملك أن يمحوه سوى سياساته. إنها قادرة ليس شأنها سوى أن تدمر وحسب، كما يزعم النظام، وهو مسكون من عرق لم يكن له إسهام إيجابي في مجتمع المعرفة قط. منظف مخل هواء يشفط في كرشه الذي لا يشبع كل ثمار الحضارة الأوروبية ثم يلفظ الخبيصة المتحققة بقرف واشمئزاز. وكم هو غريب أن يقوم مجتمع يزعم أنه يمثل وجه التقدم الذي يتهدده الخطر فينغلق على نفسه في خيالات يعود عهدها إلى قرون، جاهلاً ومبتهجاً بجهالته، أو لا مبالاته بحقيقة أن آخر نتاج، وعامل بين المؤسسات، لأركان الإيمان القديمة المعمول بها في الفكر الأوروبي - اليهودي.

ليكن الرب والشريعة -والأول أخص- مثالاً. إن للعرق الأسود أكثر من مبرر تاريخي كاف ليصاب بقدر من جنون الاضطهاد، ويعتقد أنه هدف لغزو آلهة غريبة تتحكم بقدره ذلك، أن حتى اليوم تأخذ ذهنية التمييز العنصري بالمذهب القائل إن شؤون العالم مقررة سلفاً - وفق دعاواها الفاضحة عما لا أملك له وصفاً سوى عوارض للتأليه حسب الكتاب المقدس - ولا أجرؤ على القول إنها المسيحية. أبناء حام من جهة؛ ونسل سام من جهة أخرى. اللعنة التي أُعلنت ذات مرة؛ هذه اللعنة التي لا رجاء بعدها. وأما الشريعة، فإن هؤلاء (السوبرمانات) الخوارق يقيمون رفضهم التسليم بحق السود في المساواة على الزعم بأن الأفريقيين لا يكنون احتراماً للشريعة وليس لديهم أدنى نزوع إلى ذلك - أي إلى أي مفهوم مرجعي يحكم بين الفرد والجماعة.

بل إن أكثر المحامين المدافعين عن الفصل العنصري ليونة وليبرالية، وهم على شيء من الأسف، إنما راضون ومقرون على الأقل بضرب منه، وهو ليس بالفصل العنصري الذي يضمن دوام الوضع القائم - بل حتى هذا الجنس الملتبس يؤسس دعاواه على خلو العقل الأسود من فكرة الشريعة. حسبي الإشارة هنا إلى إسهام حديث في هذا الأدب في شكل سيرة ذاتية لجراح قلب شهير، جراح ربما كان إنجازه العلمي قد جعله مؤهلاً لنيل جائزة نوبل للعلوم. إنه بالرغم من الصدامات الفكرية التي تقع على مستويات مختلفة واستمرار الظاهرة المؤسفة في عقول إفريقية، وهي كما يصفها ادي روكسي، نتاج التسليم التام بـ «المفاهيم التقليدية السائدة في هذا الزمن».

إن لهؤلاء -كما سبق الإقرار- أسلافاً مفكرين لهم «مكانة الحظوة» الفائقة. فقد رأي فريدريك فيلهم هيغل، وأوردت اسمه ههنا لمجرد الاستئناس بالمثال المفضل لدي، أنه من المريح القول إن الإفريقي:

لم يبلغ تطور الوعي لديه بعد مرحلة التحقيق الفعلي لأي وجود موضوعي جوهري - مثل: الله، أو القانون، اللذين ترتبط بهما مصلحة الإنسان وفيهما يحقق وجوده الخاص. هذا التمييز بين ذاته بوصفه فرداً، وبين كلية وجوده الجوهري، يفتقر تماماً إلى معرفة أن هناك وجوداً مطلقاً آخر أعلى من ذاته الفردية.

وإذ أجد من العبث أن ندد لحظة في دحض هذه الدعوى الشنيعة المغالطة للحقيقة، سأقتصر على أن أستخلص منها درساً واحداً وحسب، درساً ما زال يفوت، حتى اليوم، أولئك الذين يصرون على أن ذروة ظمأ الإنسان الفكري تتجلى في القدرة على توجيه هذه العمومية نحو رجل خارق

(سوبرمان) - آخر. وهناك فيما أعتقد مدرسة فكرية سليمة جداً لا تعارض هذه المادية وحسب، بل وأنتجت بشكل فعال مجتمعات عقلانية تعمل مستقلة عن هذه الأسطورة الباذخة المغرية، بل وبشكل منتج مفيد أيضاً.

ما أن نتغلب هكذا على غواية امتحان إنكار هذا العمل الفذ من الإسقاط الفني على الإفريقي حتى نجد أنفسنا لا نملك سوى التنقيب بهدوء عما نواجهه حيثما بحثنا من اختلافات بين تواريخ المجتمعات التي لم تكن لتتصور، حسب ما يقول هيغل وصحبه، هذا الخروج الذي لا راد له إلى الفضاء غير المتناهي، وتلك التي تناولت هذه التصورات - سواء كانت هذه الاختلافات في حقول الحياة الاقتصادية أم الفنية، أم في العلاقات الاجتماعية أم في الإنجاز العلمي - وباختصار، في تلك النشاطات الاجتماعية القابلة للبرهان بالتجربة، ومختلفة تماماً عن العواقب العرقية المترتبة على لعنات يعود عهدها إلى ما بعد مغامرة آدم وحواء بالعري كما ورد في العهد القديم.

إننا حين نأتي بهذا نصادف واقعة تستلفت الانتباه. إن تاريخ المجتمعات الإفريقية قبل الكولونيالية -وأنا أعني الكولونيالية المسيحية والعربية الإسلامية معاً- يشير بوضوح إلى أن المجتمعات الإفريقية لم تخض حرباً بين بعضها في أي وقت منذ أن وجدت في موضوع ديانتها. وأعني بذلك أن العرق الأسود لم يسع في أي زمن من الأزمان إلى إخضاع آخرين عنوة أو قسرهم بأي شكل من العصبية التبشيرية على اعتناق أي دين. أما الدوافع الاقتصادية والسياسية، فنعم. إنما لم يكن الدين سبباً في حرب. ولعل هذه الواقعة الشاذة كانت السبب في الاستنتاجات التي خرج بها هيغل - ولكننا لسنا ندري. ولا ريب في أن الوقائع الدامية في تاريخ ديانات العالم

الكبرى، والمناوشات المحلية التي امتدت حتى يومنا الحاضر قد أدت إلى شك تسرب بأن الدين، كما عرَّفه هؤلاء الفلاسفة الأجلاء، إنما يصبح معرفة ذاتية عبر نشاط الحرب وحسب.

وإذاً فإننا نعتقد والقرن العشرون على وشك أن ينصرم، أن قروناً بعد الحروب الصليبية وحروب الجهاد التي أبادت حضارات أخرى وبعضهم بعضاً، وفرقت نسيج العلاقات الاجتماعية المتماسكة وروحانية شعوب برمتها وحطمت ثقافاتهم انصياعاً لتعاليم آلهة غير منظورة. حين نصادف اليوم أمماً يوجه منطقهم الاجتماعي دعاوى دينية ولاهوتية، نعتقد من جهتنا أن عصر الظلام لم يفارق العالم حقاً. ودولة تقوم مبرراتها لاستمرار قمع معوزيها، الذين يشكلون الغالبية من ذلك الوطن، على ادعاءات باختيار علوي، لهي تهديد لسلامة العلاقة بين أطراف الكرة الأرضية في عالم يعيش على القومية بوصفها قاسماً مشتركاً بين أطرافها. مثل هذا المجتمع لا ينتمي -بعبارة أخرى- إلى هذا المجتمع الحديث. ونحن أيضاً لنا أساطيرنا، إلا أننا لم نوظفها أساساً لإخضاع الآخرين. ونحن أيضاً نسكن عالماً واقعياً، مع ذلك، ولاستعادة ملاءة ذلك العالم ليس للعرق الأسود خيار سوى إعداد نفسه والتطوع لتقديم التضحية الأسمى.

في الحديث عن ذلك العالم - الأسطورة والواقع معاً - يقضي واجبنا، وربما آخر واجب سلمي حيال عدو مقضي عليه بالخسارة - أن نذكَّره ومناصريه خارج حدوده أن لظاهرة الالتباس الذي عرّف به العالم الإفريقي تاريخاً طويلاً جداً، ولكن أشد أنصار الوجه المشين قد تعلموا منذ عهد طويل أن يعفّوا عما لا يستطيعون أن يبلغوه من الأماني. بل لعله

حقاً أن الأهم تذكرة هذا المجتمع العنصري أن لعالمنا الإفريقي، وكنوزه الثقافية وفكره الفلسفي تأثيرات عيانية على أسلاف العنصريين ذاتهم، وبرهنت على أن لها الأثر المخصب الذي تجلى في نشوء عدد من الحركات بل شقت لها روافد أيضاً، منها الرائعة الصافية والعكرة الملوثة، بين المعوزين البيض في أوطانهم.

قد تتحقق مثل هذه التنويعات من اللقاءات والاستجابات، طبعاً، بفضل باحثين أصحاب نظرة عميقة يفتشون عن اتجاهات جديدة لمغامراتهم الثقافية، وينشدون العزاء في مواجهة آلية لا ترحم اصطبغ بها وجودهم، بل بالأحرى ينشدون معاني جديدة للغز الحياة، محاولين التغلب على المرض الاجتماعي الذي أتت به انتصارات حضارتهم عينها. وقد أدى ذلك إلى شعور بالاحترام العميق للإسهام الإفريقي في عالم المعرفة، التي لم توقف، على كل حال، الحط المألوف من شأن العالم الإفريقي. فقد أضفت في بعض المواقع على الإفريقي صفات تقارب الألوهة - تلك المرحلة التي كان لا بد لكل إفريقي من أن يكون أميراً - التي كانت، كذلك مزدوجة خوف بدائي واشمئزاز من شخص الإفريقي. ولقد ظل أساس كوننا كائنات سوداء على حاله، بما يخص هذه الاستجابات المفارقة. ولكن العرق الأسود يعلم وهو قانع حسبه ما يعلم. وكان العالم الأوروبي هو الذي سعى بأقصى الحماس لإعادة تعريف نفسه عبر هذه اللقاءات، حتى حين ظهر أنه يجهد لإضفاء معنى على تجربة العالم الإفريقي.

بوسعنا أن نضرب مثالاً بتلك المدة من التعبيرية الأوروبية، وكانت حركة شهدت الفن والموسيقا والطقوس الدرامية الأوروبية التي تشارك في مجال النفوذ ذاته وأشد مجموعات الأفكار والأيديولوجيات والنزعات الاجتماعية

تنافراً وتناقضاً فيما بينها إلى حد الإدهاش - كارل ماكس، باكونين، نيتشه، الكوكايين وحرية الحب. فأي عجب، إذاً، أن يجد حضور الباكوتا، والنيمبا، واليارويه، والدوجون، والدان وسوى ذلك من القبائل الإفريقية الملهمة والملعونة بالهذيان مما كان من أشد الخصائص التي تلازم أوروبة، وجلها تيوتوني وغالي، وتمتد على ما لا يقل عن أربعة عقود على مدى القرنين الماضي والحالي. ومع ذلك يظل الهدف الجذاب تحرر الإنسان الكامل، وإطلاق طاقته غير المتحققة بعد التي من شأنها نحت ألواح المرمر لبناء عالم جديد، ونزع الطابع البرجوازي عن القيود القائمة في الفكر الأوروبي، وإضاءة الشعلة لصهر أخوة جديدة في هذا العالم الشجاع الجديد. نعم، إنه في هذه الحركة الوحيدة التي غطت كامل الطيف الواسع من الفاشية والفوضوية والثورية الشيوعية الصريحة كانت الحقيقة وهي إفريقية، كعهدها دائماً، تُشتم وتمتحن برقة وتبتلع بكاملها وتُجتر، وتصادر وتُلعن في السعار النبوئي الذي تتفتق عنه طاقات القارة المبدعة.

هاكم أوسكار كوكتشكا، مثلاً: أدت الطقسية الإفريقية عند هذا المسرحي والرسام أساساً للسير باتجاه السادية والانحراف الجنسي والاستمناء عموماً. وصبت بعفوية في استدعاء نبوءة نيتشوي، مليء بثورة نشوى متولدة عن رغبة ذاتية معادية للمجتمع، بل حقاً، ضد العالم. وكانت استجابة فاسيلي كاندنيسكي من جهته على مبادئ الفن الإفريقي بالتنبؤ بـ «علم فن يقام على أساس واسع لا بد أن يكون عالمياً بطابعه»، مصراً على أنه «مثير للاهتمام، إنما ليس بالتأكيد كافياً لقيام نظرية فن أوروبية خاصة». وكان أن أدى عندئذٍ علم الفن إلى «مركب فضفاض يتجاوز بعيداً حدود الفن ليبلغ حالة اتحاد الإنساني والإلهي».

إن هذه الحركة ذاتها التي ستحل احتفالات قيامها المئة عام قريباً في عواصم الفن الأوروبية في العقد أو العقدين القادمين بين عدة مفارقات في ظاهرة الفنانين الأوروبيين الذين باتوا فيما بعد ذوي قامات هائلة - موديلياني وماتيس، وغوغان وبيكاسو وبرانكوزي وغيرهم، يتعدون بدرجات مختلفة من الحماس عند مذبح الكشوف الفنية الإفريقية والبولينيزية، حتى حينما أقسم يوهانس بيختر، في هلوسته التعبيرية، أن يبني عالماً جديداً بالقضاء على كل وباء، بما في ذلك قبائل الزنوج والحمى، والسل والأمراض الزهرية والتشوهات الفكرية الروحية - لسوف أحاربهم وأهزمهم».

وكان أن زار بمحض الصدفة، وفي الوقت الذي صدر فيه هذا البيان، ألماني مندفع آخر هو ليو فروبنيوس - وليس له ادعاء بأن له ضلعاً أو أدنى اهتمام بالحركة التعبيرية استطاع أن يزور جزيرة إيلي - إيفي، في قلب شعب اليوروبا ومهده، وتأثر أبلغ التأثر بآية من آيات الجمال، هي تاج عقل اليوروبا ويدها، وتعبير كلاسيكي عن القدر الهادئ من القرار العالمي عند ذلك الشعب، بكلماته ذاتها:

كان أمامنا رأس من الجمال الرائع في قالب رائع من البرونز العتيق، يكاد ينطق بالحياة، مرصع بقشرة من الزنجار الأخضر الداكن الرائع. كان هذا، حقاً، أولوكن، بوسيدون إفريقية الأطلسية.

ولكن أصغوا، بعد، لما حُمل على الكتابة عن القوم أنفسهم من سما به أعمالهم اليدوية إلى هذه الأفاق من السنا الشامل:

وقفت وقد تملكني اضطراب شديد دقائق عديدة أمام بقايا من كان سيد إمبراطورية الأطلنتيد وحاكمها. ولم يكن حال أصحابي ليختلف

عن حالي. وقفنا صامتين ساكنين وكأنما اتفقنا على ذلك. ثم تطلعت من حولي ورأيت -السود- حلقة من أبناء «الكاهن الموقر»، صاحب القداسة وأصحاب أوني والمسؤولين الكرام. ولم أملك عندئذٍ سوى أن ألزم الصمت الكئيب، وقد ورد إلى خاطري أن يصبح هذا الجمع من الخلف المنحط وذوي الأذهان الضعيفة الأوصياء الشرعيين على هذا القدر العظيم من الحُسن.

إن هذه الدعوة المباشرة إلى سباق حر للنهب، تجد مبرراً لها بدعوى افتقار الحارس للأهلية، وتستدعي إلى الذهن حالات فصام أخرى هي أم صناعة الأساطير السوداء الأكثر فتكاً التي أتى بها فان لفيك لوف. ويتجلى ذلك فيما أخذ نصير النازية هذا يمطر به فوق رؤوس مواطنيه الذين يفوقونه تطرفاً من أدعية السوء.

أرشدنا، يارب، لنفكر بمعنى كلمة «ملكنا»، احملنا على أن نتفكر! وعندئذٍ: أجرؤ أن أنزل حكمي فوق هذا، وسببه، متعالياً على كراهية السود والملونين والبيض.

لقد كُفل لملحمة فان لفيك «راكا» القوية أن تحرك البالوعات البيضاء من المخاوف الأزلية. وقد قُدِّر لهذا العمل ذي الأثر اللاهب القوي أن يغذي عقيدة المستوطنين الإفريقيين عن الشبح الذي يهدد بخطر بربري شامل، يلحق بحوافر حصان الفارس الخامس، الأسود، الذي تتحدث عنه النبوءة.

ثمة درس عميق ليفيد منه العالم من قدرة التسامح عند الأقوام السوداء، درس لطالما فكرت أن له كثيراً مما يتصل بالمفاهيم الأخلاقية

التي تنبع من نظرتهم إلى العالم ودياناتهم الأصيلة، التي ما من واحدة منها أزالته تفشيات الديانات الغربية ومحوريتها الإثنية المضمرة. لأن المرء، وهو غير راض بحاله بوصفه شتاماً عنصرياً ولم يتردد عن اللجوء إلى الحط من شأن الغير، في شروط عدمية متعسفة كهذه، إلى النبع الموروث عند الأقوام السوداء -اعتقاد لحظه عالم الإثنيات- فروبينيوس وكان هذا ذاته لصاً موغلاً في النهب وواحداً من صف طويل من سارقي الآثار الأوروبيين. وتشهد المتاحف الأوروبية على شهوة أوروبة. هذه التي لا تشبع. وما يزال العالم الثالث ومنظمات مثل اليونيسكو بمثابة شهادة ثابتة على الاستمرار، بل حتى الطبيعة الارتكاسية في تلقيكم الدوري للسلع المسروقة. ومع ذلك فهل من المستغرب أن يظل فروبينيوس يلقى التكريم من منظمات سوداء وقادة وعلماء سود؟ وأن تقدم المناسبات الخاصة به مبرراً جاهزاً للاجتماعات والمؤتمرات الثقافية في القارة السوداء وتنازلاتها العنصرية المتكلفة، وهي تهجمات لم تترك لتغمض من شأن إسهاماته في معرفتهم بإفريقية، أو الدور الذي اضطلع به في فهم ظاهرة الثقافة والمجتمع الإنساني، حتى بالرغم من تكرار ترقيع أبحاثه العلمية؟

لقد أفاد اتساع العقل ذاته بأن علاقة اليوم بالأمم الاستعمارية وبعضها كان المثال لأسوأ الأشكال الاستعمارية الاستيطانية الزراعية، حيث الحط من شأن الإنسان الذي يرافق الطمع والاستغلال قد بلغ مستويات من الانحراف، ما جعل آذان البشر وأيديهم وأنوفهم ثمناً يُدفع كفارات عند التقصير في الإنتاج. أما الأمم التي عانت عذاب حروب التحرير، والتي تضم أرض وطنها أجساد الضحايا البريئة والشهداء المنسيين فتعيش جنباً إلى جنب ومستعبديها المتأخرين، بل ويتشاركون في التحكم بأقدارهم وأولئك

الذين كانوا قبل أربع سنوات أو خمس يُكرهونهم على حضور المجازر التي كانت تنزل بالأهل والجيران. وهؤلاء قانعون بالبناء ويشاركون بما يزيد عما تنص عليه المحبة المسيحية أيضاً. وروح التواطؤ هذه يسهل عدها خدعة خيانة من ذلك الجنس الخاص من الزعماء الذين قبلوا بتسويات مبكرة لحماية أحذية مضطهديهم السابقين لمنافعهم الخاصة. وصدق هذا الرأي ينبغي التسليم به في حالات عديدة. بيد أنه لدينا أمثلة عن أنظمة ارتبطت بتطلعات جماهيرها في القارة السوداء، واعتمدت هذه الفلسفة السياسية. والقول الفصل أخيراً، على كل حال، بيد الشعب ذاته، ومن علاقاته يكون صدق كل ملاحظة مثل هذه. حسبنا أن نقنع أن هذه ظاهرة جديرة بالملاحظة. هناك، بعد، أمم أوروبية اليوم ما تزال ذكرى هيمنة أقوام عليها حية ماثلة في أذهانها منذ أكثر من قرنين من تحررها، وإنها ما تزال تدفع ثمناً رهيباً من الانتقام ثقافياً واجتماعياً وسياسياً، وحتى هذه اللحظة تتقاضاه من أحفاد من كانوا ذات يوم غزاة. ولقد زرت مثل هذه الشعوب التي عانت من تاريخ طويل قاس تحت الحكم الأجنبي تحتفظ بذكرياتها مثل أيقونات يتجلى الوعي بها يومياً في معالم تذكارية وحدائق وكنائس، وشواهد توثيقية، وإشارات خشبية ورسوم ومصورات تعرض في خزائن من الزجاج المقاوم للرصاص، إنما الأهم، وهو أفصح من كل دليل، في خفض بقايا آثار الجنود الفاتحين إلى مستوى الغرباء الذين يفيدون من روح التسامح مع تقليص الحقوق المدنية والامتيازات والمستوى الاجتماعي، بما هو تهميش مقبول أو يكاد يعبر عن نفسه بأشكال الشجن من رؤوس وأكتاف خفيضة ولقاءات تكشف عن سلوك دفاعي في الأوقات النادرة حين يكون اللقاء والشعب المنتصر أمراً محتماً لا مفر

منه. نعم، لقد شاهدت هذا كله، وأكثره مدون منشور وموضوع نقاش في اللقاءات العالمية. وحتى عند التسليم بعدالته الخيالية بالمعنى المجرد لا يملك المرء إلا أن يتساءل إن لم يكن مقدار اللحم يستأصل عند الولادة عملاً أكثر رحمة من رصد خطايا الأب وإحالة العقاب إلى الأولاد حتى الجيل العاشر أو الثاني عشر.

إن العقل إذ يواجه بتقاليد كهذه من تخفيف التيه المعرفي والحضاري عند هذه الأقوام المهمشة أو الأقلية، ليعود إلى مجتمعاتنا حيث التواريخ السببية ما زالت أشد نضارة في الذاكرة، حيث ما زالت آثار تلك المجتمعات السكانية الناهضة قديماً تنطق بليغة متهمة، ودخان الحرائق يرتفع من إستراتيجيات الأرض المحروقة وليدة انحراف نظر استعماري وعنصري. ومع ذلك فإن الشوارع تحمل أسماء العتاة القدامى وتماثيلهم ونصبهم، ورموز الإخضاع القديم ما تزال تزين الساحات، ووعي شعب جديد ذي ثقة جعل هذا كله مجرد تزيينات ومأوى للخفاش والدجاج. وتظل المكتبات على حالها بما حوت لتتمكن الأجيال الجديدة من الاطلاع على أعمال فروبينيوس، أو هيوم، أو هيغل، أو مونتيسكيو وسواهم دون أن يصادفوا هذه الكلمات تطالعهم بخاتم على الصفحة الأولى: تحذير! هذا الكتاب خطر على احترامك لنفسك العنصرية.

ومع ذلك ينبغي عدم أخذ هذه الشواهد على التعايش، سواء على نطاق واسع أو متواضع، دليلاً على مدى الصبر الذي يتمتع به الأسود بلا حدود مطلقاً دون نقد. إنها تشكل في طبيعتهم مجموعة من الفحوص، ديناً متراكماً، عرض ضمني لا بد من مقابلته بعائدات ملموسة. إنها أحجار في جسر معلق بدأ من إحدى نهايتي هاوية، لا بد من إطاعة قانون المادة

والانهيار بعد نقطة معينة، شاء البناة ذلك أم لم يشاؤوا، والوقوع نهائياً في هاوية الشك المتسعة. وعلى أساس الامتحان ذاك وهو، عندنا، جنوب إفريقية، ذلك المعسكر القروسطي من الأهوال التي تذكر بالعهد القديم، والشكوك البدائية، خيار لا بد أن يقدم عليه محبو السلام كلهم: فإما أن يحملوه إلى العالم الحديث، إلى حالة وجود عقلانية في تلك الروح من الشراكة الإنسانية، والقدرة عليها التي برهن عليها كفاية كل شعب أسود في قارتنا أو إخضاعه حتى الركوع على ركبتيه، من كل وجه، من الاعتراف الإنساني، بحيث يُسلّم داخلياً عبر إستراتيجيات أغلبيته المحاصرة. ومهما يكن الخيار فإنه لا يمكن أن تترك هذه الإهانة غير الإنسانية لتدفع بقرننا العشرين إلى القرن الحادي والعشرين، سن الرشد الرمزي الذي يبدو أن ثقافات الشعوب كلها تحتفي به بطقوس سن الرشد. أما أن التقويم ليس مسلَّماً على مستوى الكون فأمر معلوم، وكذلك مقتضيات الزمن. وليس بالإمكان عَدُّ أي من هذه الضرورات التي تتحدى وجودنا وحضورنا وتعريفنا بشراً في هذا الوقت أشد إلحاحاً من نهاية العنصرية ومحو التفاوت بين البشر وهدم كل بنائها. إن الجائزة تتويج آتٍ، مترتب على إتمامها: حق التصويت الشامل، والسلام.

# الحائزون على جائزة نوبل من عام 1901 - 2005

2005 هارولد بينتر
2004 إلفريده يلينيك
2003 جيه. إم. كويتزي
2002 إيمري كيرتيش
2001 ڤي. إس. نيبول
2000 جاو كسينغجيان
1999 غونتر غراس
1998 جوزيه ساراماغو
1997 داريو فو
1996 ويسلاوا سزيمبروسكا
1995 سيموس هيني
1994 كينزأبورو أوي
1993 توني موريسون
1992 ديريك والكوت
1991 نادين غورديمير
1990 أكتافيو باز
1989 كاميليو خوسيه ثيلا
1988 نجيب محفوظ
1987 جوزيف برودسكي
1986 وولي سوينكا
1985 كلود سيمون
1984 ياروسلاف سيفرت
1983 وليم غولدنغ
1982 غبريال غارسيا مركيز
1981 الياس كانيتي
1980 تشيسلاف ميلوش
1979 أوديسيوس اليتيس
1978 إساك باشيفزسنجر
1977 فينسنته ألكسندر
1976 سول بيلو
1975 أوجينيو مون آتي
1974 إيفند جونسون هاري مارتنسون
1973 باتريك وايت
1972 هاينريش بول
1971 بابلو نيرودا
1970 ألكسندر سولجنيتسين
1969 صموئيل بيكيت
1968 كاواباتا ياسوناري
1967 ميغل أنخل أسكورياس
1966 شموئيل عغنون، نللي ساخس
1965 ميخائيل شولوخوف
1964 جان بول سارتر
1963 جيورجيوس سفريس
1962 جون شتاينبك
1961 إيفو أندريتش
1960 ألكسيس سان جون بيرس
1959 سالفاتوري كازيمودو
1958 بوريس باسترناك
1957 ألبرت كاموس
1956 خوان رامون خيمنيز
1955 هالدور لاكسنس
1954 إرنست همنغواي
1953 ونستون تشرشل
1952 فرانسوا مورياك
1951 بار لاغركفيست
1950 بيرتراند رسل
1949 وليم فوكنر
1948 تي. إس. إليوت
1947 أندريه جيد
1935 وزعت أموال الجائزة بنسبة 1/3 للصندوق الرئيس و2/3 للصندوق الخاص بهذا الفرع من جائزة نوبل
1934 لويجي برانديللو
1933 إيفان بونين
1932 جون غلزورثي
1931 إريك أكسل كارلفلت
1930 سنكلير لويس
1929 توماس مان

1946 هيرمان هس
1945 غبريالا ميسترال
1944 يوهانس ڤ. نيس
وزعت أموال الجائزة بنسبة 1/3
1943 للصندوق الرئيس، و2/3 للصندوق
الخاص بهذا الفرع من جائزة نوبل
وزعت أموال الجائزة بنسبة 1/3
1942 للصندوق الرئيس و2/3 للصندوق
الخاص بهذا الفرع من جائزة نوبل
وزعت أموال الجائزة بنسبة 1/3
1941 للصندوق الرئيس و2/3 للصندوق
الخاص بهذا الفرع من جائزة نوبل
وزعت أموال الجائزة بنسبة 1/3
1940 للصندوق الرئيس و2/3 للصندوق
الخاص بهذا الفرع من جائزة نوبل
1939 غرانس إميل سيلانبا
1938 بيرل بوك
1937 روجه مارتين دوغار
1936 أوجين أونيل
1913 رابندرانات طاغور
1912 غرهارت هاوبتمان
1911 موريس ماترلينك
1910 بول فون هايس
1909 سلمى لاغرلوف
1908 رودلف أوكن
1907 روديار كبلنغ

1928 سيغريد أوندست
1927 هنري برغسون
1926 غراتسيا ديليدا
1925 جورج برنارد شو
1924 فلاديسلاف ريمونت
1923 وليم بتلر ييتس
1922 جاسينتو بينابنتي
1921 أناتول فرانس
1920 كنوت همسون
1919 كارل شبيتلر
1918 وزعت أموال الجائزة بنسبة 1/3
للصندوق الرئيس و 2/3 للصندوق
الخاص بهذا الفرع من جائزة نوبل
1917 كارل غيلوروب، هنريك بونتوبيدان
1916 فرنز فون هايدنستام
1915 رومان رولان
1914 وزعت أموال الجائزة بنسبة 1/3
للصندوق الرئيس و 2/3 للصندوق
الخاص بهذا الفرع من جائزة نوبل
1906 جيوزيه كاردوتشي
1905 هنريك سينكيافيتش
1904 فردريك ميسترال، خوسيه إتشيغاراي
1903 بيورنستيرن بيورنسون
1902 تيودور مومسن
1901 رينه سولي برودوم

## مصادر وتنويهات:

يود الناشرون أن يتوجهوا بالشكر لمؤسسة نوبل لتفضلها بإجازة نشر المحاضرات بين دفتي هذا الكتاب. وقد تم الحصول على محاضرة سيموس هيني من (Les Prix Nobel: The Nobel Prizes 1995)، بتحرير تور فرانغسماير، من مؤسسة نوبل، ستوكهولم، 1996. ومحاضرة كينزابورو أوي بإذن من (Nobel Lectures: Literature 1991 - 1995)، بتحرير ستور آلين، (World Scientific Publishing Co. Singapore، 1997). ومحاضرات أكتافيو باز، وكاميليو خوسيه ثيلا، ونجيب محفوظ، وجوزيف برودسكي و وولي سوينكا، بإذن من (Nobel Lecture: Literature 1981 – 1990)، بتحرير غرانغسماير وآلين، (World Scientific Publishing Co. Singapore, 1993).